كوكتيل 2000
ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية

أم على
وقصص أخرى

د. نبيل فاروق

- مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

أم على

(قصة قصيرة)

« الدكتور (محسن) عاد من مؤتمر (لندن) .. »

ألقت زميلتى (نهـا) العبارة فى همس منفعل ، وهى تلهث فى شدة ، على نحو جعلنا جميعًا ننظر إليها فى دهشة ، قبل أن أقول أنا ، فى حيرة مستنكرة :

ـ عاد إلى هنا ؟!

أومأت (نهـا) برأسها إيجابًا ، فى حماسة منفعلة ، وهى تقول :

- نعم .. من المطار إلى هنا مباشرة ؛ ليتابع حالاته التى كان يتابع علاجها قبل سفره .

ثم غمزت بعينها فى خبث ، قبل أن تستطرد :

- إنه غير متزوّج كما تعلمن .

وجدت نفسى أهتف فى حدة :

- ومن تفكّر فى الزواج من جلف مثله ؟

ضحكت زميلتنا (سلوى) وهى تقول :

- الواقع أنه وسيم جدًا يا (مروة) .

قلت فى حدة أكثر :

- حتى ولو كان أكثر رجال الأرض وسامة ! إنه مجرّد تمثال من الرخام ، بلا قلب أو مشاعر .

هزّت (نها) رأسها نفيًا ، وقالت :

- لست أظن هذا .. ربما كان صارمًا عنيدًا ، ولكن لو أنه بلا مشاعر كما تقولين يا (مروة) لما عاد من المطار إلى هنا مباشرة ، ليعود مرضاه .. شخص غيره كان سيعود إلى بيته ، وينعم بيوم كامل من النوم والراحة أوّلاً .

هتفت بعناد :

ـ ولو .

ضحكت (نها) و(سلوى) ، ولم تحاول إحداهما معارضتى ، لما تعلماته من صلابتى وعنادى ، منذ كنا زميلات فى مرحلة الحضانة ..

والواقع أن رأيى فى الدكتور (محسن) هذا لم يتغيَّر أبدًا ، منذ بدأت العمل كطبيبة امتياز ، فى ذلك المستشفى العام ، إثر تخرجى مع زميلتى عمرى ، من كلية الطب ..

فمنذ أوَّل يوم عرفته ، وهو شخص صارم ، عنيف ، لا يهتم فى الدنيا كلها سوى بمرضاه ، الذين يعاودهم ليلاً ونهارًا ، ويقضى ساعات طوالاً إلى جوارهم ، دون أن يسمح لطبيب امتياز واحد بالاقتراب منهم ، أو التدخُّل فى علاجهم ..

العبارة الوحيدة ، التى يردِّدها دومًا ، هى أن أطباء الامتياز مجرَّد ظلال بيضاء غير نافعة ..

قول سخيف ، يشفَّ عن غرور غبى ..

هذا ما أقوله عنه دومًا ..

أما الشىء الذى كنت أصرّ عليه باستمرار ، فهو أنه رجل

بلا قلب أو مشاعر ، وأن صرامته الدائمة ليست إلا محاولة سخيفة لإخفاء أمر ما ، يخجل أن يعرفه الآخرون عنه ..

بالتأكيد ..

ولقد عدت أخبر صديقتىَّ برأيى هذا ، ونحن فى طريقنا إلى استقبال الطوارئ ، الذى سنقضى فيه نوبة الليل معًا ، كما اعتدنا طوال فترة الامتياز ..

وفى حجرة استقبال الطوارئ ، رحت أشرح لهما خطة وضعتها ، لإحراج الدكتور (محسن) ، وكسر غروره وتعاليه ، وإجباره على الاعتراف بوجودنا نحن أطباء وطبيبات الامتياز ، و ...

« هل تسمحن ؟! »

قاطعتنا تلك العبارة القصيرة ، التى نطقها رجل قصير القامة ، خشن الملامح ، فى لهجة خافتة مهذبة ، تتناقض بشدة ، مع بنيانه المتين ، ولحيته غير الحليقة ، فاعتدلنا فى آن واحد ، وسألته أنا :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار بيده ، فى شىء من الارتباك ، وقال :

- والدتى مريضة .. معدتها تؤلمها منذ الغروب .. هل يمكنكن أن .. أعنى هل تسمحن بـ ...

قاطعته قبل أن يكمل ، وأنا أنهض من مقعدى ، واتجه إليه بحماسة :

- بالتأكيد .. أين هى ؟!

تبعتنى (نها) و(سلوى) كالمعتاد ، واتجه ثلاثتنا إلى حجرة الكشف ، ولم يكد بصرنا يقع على أمه ، التى تقف إلى جوار سرير الكشف الطبى صامتة ، تمسك معدتها فى ألم ، حتى هتفنا فى آن واحد :

- أم (على) ؟!

ارتبك الرجل بشدة ، فى حين امتقع وجه الخالة أم (على) العجوز ، وهى تحدق فى وجوه ثلاثتنا ، مغمغمة فى خجل وارتباك :

- كيف حالكن يا بنات .

عبارتها القديمة ، التى طالما سمعناها فى طفولتنا ، أثارت فى نفوسنا حنيناً شديداً ، وأعادت إلى أذهاننا ذكريات أجمل أيام حياتنا ، عندما كنا صغيرات ، نسكن إلى جوار بعضنا ،

فى منطقة (المعادى) ، وكانت الخالة أم (على) قاسمًا مشتركًا فى حياتنا ، عندما كانت تحضر لأسرنا البيض الطازج ، والدجاج والبط وغيرها من الطيور ، وتؤدى للكل أية خدمات معقولة ، مقابل أجر بسيط ..

كانت دومًا باسمة الثغر ، حنونًا ، دافئة المشاعر ، ما إن نلمحها ، نحن وأطفال الحى كله ، حتى نهرع إليها بفرحة عارمة ، ونحن نهتف باسمها ، وكانت هى تستقبلنا دومًا بابتسامة كبيرة ، ودفء يكفى لإذابة ثلوج القطبين معًا ..

وكم أحببناها وتعلقنا بها فى طفولتنا ، وأصبحنا ننتظرها بكل اللهفة والحب ..

ثم اختفت أم (على) فجأة ..

دون مقدمات ، لم تعد أم (على) تأتى إلى حيِّنا ، أو إلى أية أحياء أخرى .. ولقد انتظرناها طويلاً ، ثم لم نلبث أن بدأنا نبحث عنها ، ونسأل عن أحوالها ، فعلمنا من بعضهم أن ابنها (على) قد طلب منها أن تكفَّ عن العمل ، وخرج هو ليعول أسرته كلها وأشقاءه الأصغر سنًا ..

وكم افتقدنا أم (على) فى شبابنا وصبانا ..

حتى رأيناها الآن ..

وبكل شوقنا ولهفتنا ، أقبلنا عليها نغمرها بحبنا وقبلاتنا ، فاحمر وجهها خجلاً ، وامتزج ألمها بتلك الابتسامة الحانية الدافئة ، التى افتقدناها طويلاً ..

وبكل حبنا ، رحنا نفحص أم (على) ، ونتعاون على إراحتها وتهدئتها ، وتخفيف آلامها ، وابنها يقف صامتًا ، يتطلع إلينا فى تأثُّر واضح ..

ولكن أم (على) كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من عقار لتخفيف الألم ..

وبكل الاهتمام ، قلت لها :

- خالتى أم (على) .. سنحتجزك هنا ليومين ، حتى نجرى لك كل الفحوص اللازمة .

ظهر على وجهها ذعر لم أفهمه ، فى حين اندفع ابنها يقول فى ارتباك :

- لا .. ليس هنا .

قالت (نها) فى دهشة :

- ولِمَ لا .. ما ستجده هنا لن تجده فى أى مستشفى آخر .. ثم إن الخالة أم (على) مثل والدتنا ، وسنوليها كل رعايتنا واهتمامنا ..

تبادلت أم (على) نظرة قلقة متوترة مع ابنها ، الذى أومأ برأســه ، وكأنما يعلن فى صمت فهمه لما تعنيه ، وتنحنح فى حرج ، قائلاً فى شىء من الحزم :

- ليس هنا .

خُيِّل إلىَّ أننى قد فهمت مغزى كل هذا ، فقلت فى حزم :

- لن يكلفكما هذا قرشًا واحدًا .

قال الرجل فى حرج :

- ليست مسألة نقود .

تابعت وكأننى لم أسمعه :

- سنتخذ كل الإجراءات اللازمة ، وسندخل الخالة أم (على) القسم المجانى ، و ...

قبل أن أتمَّ عبارتى ، ارتفع صوت جهورى صارم ، يقول :

- هراء .

التفتنا جميعًا بحركة واحدة ، إلى مصدر الصوت ، ووقع بصرنا على الدكتور (محسن) ، الذى بدا عملاقًا قويًا صارمًا فى تلك اللحظة ، حتى إن (نها) و(سلوى) قد امتقعتا على نحو عجيب ، فى حين ارتبك الرجل القصير ، واحتقن وجه أم (على) المسكينة ، وتراجعت فى شىء من الذعر ، جعلنى أشفق عليها ، وأهم بالاعتراض على قوله فى عنف ، لولا أن فوجئت به يكمل ، فى حنان عجيب ، أدهش الكل بالتأكيد :

ـ هذه السيدة ستعالج فى جناح خاص ، وبالدرجة الممتازة أيضًا .

احتقن وجه أم (على) أكثر ، وارتبك ابنها بشدة ، ولكن الدكتور (محسن) اتجه نحوهما ، ثم أقدم على آخر شىء يمكننا تصوره ..

لقد انحنى يلتقط يدها ، ثم يطبع عليها قبلة طويلة ، جعلت وجهها يتضرج كله بحمرة عجيبة ، قبل أن ينهض هو ، ثم يحيط جسدها الضئيل بذراعه القوية ، ويضمها إليه فى حنان جارف ، قبل أن يقول بصوت ، لم أسمع أكثر أو أشد منه حبًا وفخرًا واعتزازًا :

- إنها أمى .

اتسعت عيون ثلاثتنا فى ذهول ، ونحن نحدق فيه ، فى حين دفنت أم (على) رأسها فى صدره ، وسالت دموعها على وجهها الطيب الحنون ، فضمها إليه أكثر ، وربت عليها بحنان أذهلنى ، وأطلق فى جسدى كله ارتجافة عجيبة ، شملته حتى النخاع ..

وبكل ذهولها ، هتفت (نها) :

- الخالة أم (على) هى أمك ؟!

اتسعت ابتسامته فى زهو وفخر ، وهو مازال يضمّ أمه إليه بكل حنان الدنيا ، ومدّ يده يربت على كتف القصير ، وهو يجيب :

- لى كل الفخر .. أما هذا ، فهو (على) ، شقيقى الأكبر ، وأفضل أسطى ميكانيكى فى (المعادى) كلها .

ثم التفت إلى شقيقه ، وداعب لحيته نصف النابتة ، وهو يضيف بحب :

- كفاحه وتضحيته هما اللذان صنعا منى ما أنا عليه الآن .

قالها ، وطبع قبلة امتنان على جبين شقيقه (على) ، قبل أن يعتدل ، مستعيدًا كل صرامته المألوفة ، ومستطردًا :

ـ هيا .. لاتضيعن الوقت .. أريد أفضل جناح فى المستشفى كله .. على النيل مباشرة ، وعلى نفقتى الخاصة .. وليبدأ الاستعداد لعمل الفحوص فورًا .

وبكل حماس الدنيا ، هتفت :

ـ بالتأكيد .

لحظتها ، ألقيت كل خططى السابقة خلف ظهرى ..

ووضعت خطة جديدة ..

ولقد نجحت خطتى الجديدة نجاحًا باهرًا ، ولايمكنكم أن تتصوّروا مدى سعادتى وفخرى بنجاحها ، وأنا أسير الآن فى (المعادى) متأبطة ذراع زوجى العظيم ، الدكتور (محسن) ، وفى يدى الأخرى ثمرة حبنا ..

(على) ..

حفيد أم (على) ..

* * *

اختلاف [قصة قصيرة]

ماذا أصاب الكل ؟!

ما الذى غير أسلوبهم تجاهه على هذا النحو ؟!

بل ماذا حدث للمنزل كله ؟!

لماذا يتجاهله الجميع على هذا النحو ؟!

إنه كبير العائلة وعميدها ، وولى نعمتها أيضًا ، والمفترض أن يحيطه الكل بالاحترام والتوقير والتقدير ..

ولقد كان هذا ما يفعلونه ، قبل مرضه الأخير ..

كان الكل يرعاه ، ويتملقه ، ويبذل الكثير والكثير لاكتساب وده ..

ثم فجأة ، لم يعد هناك من يبالى بوجوده ..

حتى ابنتـه الكبرى ، التى اعتبرها دومًا أكثر أبنائـه عطفًا وحنانًا ، تجاهلته تمامًا ، عندما ابتسم فى وجهها هذا الصباح ..

كانت منهمكة فى إعداد أشياء كثيرة ، فلم تبال به إطلاقًا ..

وعندما صرخ فى وجهها ، وصاح مطالبًا إياها بالاحترام الواجب ، من الابنــة تجـاه والدهـا ، أشاحت بوجهها عنـه ، وواصلت عملها بنفس الانهماك ، وكأنما لم يعد يعنيها أمره قط ..

يا لسخافة الدنيا !

الكل يلتف حولك ، عندما تشرق لك الشمس ، ثم ينفضون بسرعة البرق ، مع أول قطرة مطر تنهمر عليك .

كان ينبغى أن يدرك هذا منذ البداية ..

وأن يعيه جيدًا ..

وخاصة مع حياته الحافلة ، التى قضاها فى العمل والكفاح والجهد ، حتى صار واحدًا من أشهر التجار ، وأكثرهم ثراءً ومهابة ..

وطوال حياته الحافلـة ، لم يجرؤ مخلوق واحد فى عائلتـه كلها ، على رفع عينيه فى وجهه ..

كان هو الآمر الناهى ، وصاحب الكلمة النافذة ، فى كل الظروف والأحوال ..

ولِمَ لا ، ما دام يطعمهم ويكسوهم جميعًا من ماله ..

وما دام هو الأقوى ..

والأكثر ثراءً ..

ثم إنه يختلف عن الكل ..

طيلة عمره يدرك أنه يختلف عنهم جميعًا ..

إنه أكثر براعة ، وذكاءً ، وحنكة ..

بالتأكيد هو يختلف ..

الآن بالذات يشعر بأنه يختلف عن كل من حوله ..

يختلف تمامًا ..

وهؤلاء الأغبياء لا يدركون هذا ..

وهذا أفضل ..

إنها فرصة ، ليعرف حقيقة مشاعرهم نحوه ..

إنهم ما زالوا يحتفظون بصورته الكبيرة فى نفس موضعها ، فى صدارة حجرة الصالون الكبرى ، ولكنهم يتجاهلونه هو على نحو مستفز ..

كل منهم منشغل تمامًا فى عمله ، وفى الإعداد لذلك الاجتماع ، الذى يولونه كل اهتمامهم وعنايتهم ..

يا للمنافقين !

لو أنه لم يعان من هذا المرض الأخير ، لما فعلوا به هذا ..

لو أنه ظلّ قويًا كما كان دائمًا ، لوضعوا ألف حساب لمشاعره ...

لما الآن ، فالكل يتصرّف وكأنما لا وجود له ..

وكأنما انتهى كل شىء بمرضه ..

ولكنه يحمل لهم مفاجأة كبرى ، لا يمكنهم تصوّرها قط ..

إنه لم يعد يعانى المرض ..

لم يعد يشعر بالضعف والعجز والألم ..

لم يعد مقعدًا كذى قبل ..

ولكنهم يجهلون هذا تمامًا ..

وهذا أفضل ما فى الأمر ..

دعهم يتصرفون ويتعاملون بتلقائيتهم المستفزة هذه ، حتى تحين لحظة المواجهة الكبرى ..

اللحظة التي سيدركون فيها الحقيقة ..

كل الحقيقة ..

وفى هدوء وصمت ، جلس فى الركن ، يراقبهم بعينى ذئب ، وابتسامة ثعلب ماكر ، يتابع فريسته فى اهتمام ، انتظاراً للحظة الانقضاض والفتك ..

ومن ناحيتهم ، لم يوله أيهم أدنى اهتمام ..

لقد واصلوا عملهم ، وتجهيزاتهم لحجرة المكتب الكبيرة ، على نحو يوحى بأنهم فى انتظار ضيف مهم للغاية ..

ومن بقعة ما فى أعماقه ، بدا له أنه يعرف طبيعة ذلك الضيف ..

ومهنته ..

لم يدر كيف أدرك هذا ..

ولكنه أدركه ..

بل وعلم أيضاً أنه سيأتى فى تمام السابعة ..

وكم كانت دهشته ، عندما صدقت تنبؤاته تماماً ..

ترى ما الذى يعنيه هذا ؟!

ما الذى جعله قادرًا على التنبؤ والاستنتاج ، على هذا النحو ؟!

لقد قرأ الكثير فى هذه الأمور ، وعن البصيرة التى تتفتح للمرضى ، و ..

ولكن هذا لا يهم الآن ..

المهم أن الضيف الذى يتوقعه قد وصل ..

وفى موعده تمامًا ..

إنه محاميه ..

يا للخائن !

هو أيضًا تجاهله تمامًا ، ولم يلق عليه حتى التحية ، وهو يدخل إلى حجرة المكتب ، ثم ـ ويا للوقاحة ـ يجلس على مقعده هو !!

يا له من صفيق !!

فى الماضى كان يقف طوال الوقت ، ولا يجرؤ على الجلوس لحظة واحدة فى وجوده ..

وهذا أمر طبيعى ، مادام يحصل منه على ثروة فى كل عام .

ثروة يحلم بها أى محام ، فى (مصر) كلها ..

ولكن لماذا يدهشه هذا ؟!

إنها طبيعة الدنيا ..

وطبيعة البشر ..

أقاربـه كلهم اجتمعوا فى حجـرة المكتـب ، يتطلّعـون إلـى المحامى فى لهفة كبيرة ..

يا للأوغاد !!

لاريب فى أنهم يسعون لتجريده من ثروته ..

أو للحجر عليه ، باعتبار أن مرضه قد أثر فى قواه العقلية ..

ولكنه لن يسمح لهم بهذا ..

سيواجههم فى اللحظة المناسبة ، ويصرخ فى وجوههم معلنًا الحقيقة ..

حقيقة أنه لم يعد مريضًا ..

لقد استعاد صحته ..

وحيويته ..

ونشاطه كله ..

بل إنه يشعر بنشاط أكثر من كل ما شعر به ، في حياته كلها ..

وسيطلق هذا النشاط في وجوههم ، التي تحمل كل لهفة الدنيا ، وهم يستمعون إلى محاميه الخائن ، وهو يقرأ عليهم وصيته ، و ...

ولكن مهلاً !!

يقرأ وصيته ؟!

ولكن هذا يعني أنه .. أنه ..

رباه ! الآن فقط أدرك لماذا يشعر بأنه مختلف ..

ولماذا يشعر بكل هذا النشاط ..

الآن فقط أدرك لماذا يتجاهله الجميع ..

هذا لأنه لم يعد - في الواقع - يحيا معهم ..

أو مع أي مخلوق ، في الدنيا كلها ..

لقد غادر الحياة كلها ، وأصبح مجرد ..

شبح ..

عندئذ فقط ، ومع إدراكه لحقيقته ، لم يعد يبال بكل ما يحدث حوله ..

بأقاربه ، ومحاميه .. وحتى ثروته ..

وفي استسلام حزين ، راح ينسحب من حجرة المكتب ، والمنزل ..

والدنيا كلها ..

إلى عالم يختلف ..

تمامًا .

* * *

آخـر الخـط ..

(قصة قصيرة)

أخيرًا ، جاء ذلك اليوم ، الذى تصوَّر أنه لن يأتى أبدًا ..

اليوم الذى تنتهى فيه رحلته الطويلة ..

الرحلة ، التى بدأها منذ أربعين عامًا كاملة ..

رحلة الكفاح ..

والصـــراع ..

والشـقـاء ..

والتعـــب ..

يا إلهى ! إنه يتذكَّر البداية ، كما لو أنها قد حدثت أمس ..

كان شابًا ، وسيمًا ، طموحًا ، طيب القلب ، حلو المعشر ..

وفقيرًا .. للغاية !

لقد نشأ فى أسرة فقيرة ، كثيرة الأبنـاء ، قليلـة الدخـل ، يعانى أفرادها شظف العيش ، ويجدون بالكاد ما يكفى لقوتهم اليومى ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد جاهد والده الفقير ، ليمنحهم جميعًا نعمة التعليم ..

كان حلم حياته أن يرى أولاده أفضـل منـه ، ينعمون بشـهادات عاليـة ، ووظـائف مرموقـة ، ودخـول تسمح لهـم بـالعيش ، فـى مستوى آمن مطمئن ..

ولأنه كان أولّ الأبناء ، وأكثرهم ذكاءً وطموحًا ، فقد اعتبره والده الأمل الأولّ له ، ولم يدخر جهده ، أو أمواله القليلة ، ليدفعه دفعًا ، فى طريق العلم والتعليم ..

ولقد بذل هو قصارى جهده بحق ، حتى لاتضيع تضحية والده ، أو تذهب جهوده هباءً ..

*

وبتفوق ملحوظ ، تجاوز المرحلة الابتدائية ..

ثم حصل على الشهادة الإعدادية بمجموع مبهر ..

وفى نهاية المرحلة الثانوية ، نشرت صورته فى الصحف ، باعتباره واحدًا من أوائل الطلاّب ، على مستوى الجمهورية كلها ..

وكتطوّر طبيعى ، كان ينبغى أن يلتحق بكلية عملية ، من الكليات المتاحة للمتفوقين من أمثاله ..

وهنا ، حانت لحظة مواجهة الحقيقة ..

صحيح أنه متفوق ، وأنه الوحيد من بين أشقائه ، الذى أمكنه الالتحاق بالمرحلة الثانوية العامة ، وإنه يستحق بتفوقه ، دخول أكبر كليات القمة ..

ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، كما يقولون ..

ومهما بذل والده العامل البسيط من جهد ، فلن يمكنه أبدًا تحمّل نفقات الدراسة ، فى كليات القمة ..

حتى مكافأة التفوق ، لم تكن لتكفى أبدًا ؛ لأن المسئولين لم يدركوا بعد أن الزمن يتطوّر ، والاقتصاد يتغيّر ، والمكافأة التى كانت تكفى فيما مضى ، لم تعد تساوى ثمن بضع وريقات ، من أصغر مذكرة فى الكلية اليوم ..

وهكذا ، وعلى الرغم من طموحه ، كان لابد له أن يرضى بكلية نظرية ، ذات نفقات محدودة ..

نفقات يمكن لوالده المكافح احتمالها ..

وفى استسلام لقدره ، التحق بكلية أدبية ..

وحاول أن يطوّع طموحه للتعامل معها ، فراح يستذكر مقرراته فى اهتمام وحزم ، ويسعى للتفوق والتقدُّم فى الكلية ..

وعبر سنوات الدراسة الأربع ، كان طموحه يربح المعركة دومًا ..

لقد تفوّق ..

وتفوّق ..

وتفوّق ..

وفى السنة النهائية ، حصل على شهادته بتقدير ممتاز ، يندر أن يحصل عليه أى طالب ، فى كلية مماثلة ..

وكانت فرحة والده طاغية ..

آخر الخط .. (قصة قصيرة)

الحى كله ، ظل يرقص حتى صباح اليوم التالى ، احتفالاً بنجاح ابنه وتفوقه ، وحصوله على تقدير مرتفع ، يمنحه حق التعيين كمعيد فى الجامعة ..

ومع الوقت ، والترقى لم يلبث أن يصبح أستاذًا جامعيًا ، يشار إليه بالبنان ، ويزهو به والده وأشقاؤه ..

ولكن الحلم كان أجمل كثيرًا من عالم الواقع ..

ففى دهاليز الكلية ، كانت هناك أمور تدور ، لا علم له بها ..

ولا قبل له بمواجهتها ..

فلسبب ما ، أمكن تطويع اللوائح للتوافق معه ، لم توافق الكلية على تعيينه معيداً بها ..

ربما لأنه من أصول اجتماعية متواضعة ..

أو لأن ابن أحد الأساتذة بالكلية ، كان يطمح إلى الوظيفة نفسها ..

أو للسببين معًا ..

المهم أنه لم يصبح معيداً بالكلية ..

لم يفز بالمنصب والوظيفة ..

ولا بأية وظيفة أخرى ..

Network 587
Internet access

كل ما حدث ، هو أنه أصبح اسمًا إضافيًا ، في قائمة البطالة ، والعاطلين عن العمل ..

انتهى من دراسته بتفوق ، وفعل كل المطلوب منه ، والآن لايجد وظيفة واحدة ، تغنيه عن السؤال ، وتقيه وتقى أسرته من الجوع ..

وكان يمكنه أن يحتمل كل هذا ، لولا نظرة الحزن والأسى والإحباط ، التي تطلّ دومًا من عيني والده ..

النظرة ، التي جعلته يسعى للحصول على أى مصدر للدخل ..

مهما كل شأنه ..

وخلال عام كامل ، تنقّل بين عدة وظائف ، لاتحتاج أفضلها إلا لإجادة القراءة والكتابة ، على أكثر تقدير ..

وحصل على دخل للعيش ..

وربما لإعالة الأسرة أيضًا ..

ولكن هذا لم يمح نظرة الإحباط والأسى ، من عيني والده أبدًا ..

ولم يدر هو ماذا يفعل ؟!

أو أين يذهب ؟!

ثم جاء ذلك اليوم ، الذى طلب فيه والده منه أن يلملم أوراقه ، ثم اصطحبه معه إلى المصلحة ، التي يعمل فيها ، وقدّمه إلى رئيسه ، الذى وقّع بالموافقة على طلب وظيفة معد مسبقًا ..

آخر الخط .. (قصة قصيرة)

وأصبح هو أخيراً موظفاً رسمياً ، له راتب ثابت ، يكفى بالكاد للعيش الحاف ، وقليل من الملح ..

وكان عليه أن يواصل عمله الخارجى ، فى النصف الثانى من اليوم ..

ويواصل ..

ويواصل ..

وبعد ستة أشهر فحسب ، من توليه الوظيفة الرسمية ، رحل والده عن الحياة فى هدوء ، وكأنما أسلمه الراية ، وانتهى دوره فى الحياة ..

وبدأ هو مرحلة جديدة ..

ورحلة طويلة ..

رحلة استغرقت عمره كله ..

والتهمت شبابه ..

وطموحه ..

وأحلامه ..

لأربعين عاماً كاملة ..

وكعادته ، أدى واجبه على خير وجه ، ورعى أسرته ، وأمه ، وأشقاءه ، وسعى لاستكمال تعليمهم ..

ولتوظيفهم ..

وتزويجهم أيضًا ..

وخلال الرحلة ، نسى نفسه تمامًا ..

نسى أحلامه ، وطموحاته ، وحتى مشاعره ..

لم يرتبط أو يتزوّج أبدًا ..

أو يشعر حتى بمرور الوقت ..

حتى وصل إلى آخر الرحلة ..

إلى آخر الخط ..

فاليوم فقط ، وصلته رسالة مسجّلة مطبوعة ، تحمل اسم المؤسسة ، التى يعمل بها ، مع كلمات قصيرة أدهشته جدًا ..

وأزعجته للغاية ..

كلمات تنبئه بأنّه قد وصل إلى آخر الخط ، وبلغ السن القانونية ..

سن الخروج إلى المعاش ..

الآن فقط ، انتهى مشوار العمر الطويل ..

أو هكذا يتصوّر ..

آخر الخط .. (قصة قصيرة)

فقد وصل إلى السن القانونية للتقاعد ، إلا أنه لم يبلغ سن نهاية الأحلام والطموحات بعد ..

فمازال لديه الكثير مما يمكن أن يعطيه ..

والكثير جداً ..

أمه ما زالت على قيد الحياة ، وتحتاج إلى رعايته وعنايته ..

وأشقاؤه وشقيقاته يطلبن معاونته واستشاراته دومًا ..

وأبناؤهم يذوبون عشقًا له ..

الرحلة لم تنته بعد إذن ..

والقطار لم يصل إلى آخر محطاته ..

وهذا يعني أنه سيكمل مشواره ، بنفس الحب والعطاء والتفاني ..

وسيواصل رحلته ..

حتى آخر الخط ..

* * *

آســـف .. (قصة قصيرة)

حبيبتى ..

هذا الخطاب الذى أرسله إليك الآن ، تأخر كثيراً ..

كثيراً جداً ..

تأخر أكثر مما ينبغى ..

وأكثر مما أمكنك الانتظار ..

أو الاحتمال ..

وأعترف أن هذا خطئى ..

وخطأك أيضاً ..

فمنذ عرفتك ، عهدتك دائماً الطرف الأكثر احتمالاً ..

والأكثر حناناً ..

وحباً ..

وعطاءً ..

ولقد عشقت هذا فيك ، منذ اللحظة الأولى ، إلا أننى ، وعلى الرغم من هذا ، لم أحترمه كما ينبغى ..

ربما لأننى رجل ..

وشرقى ..

فالآن فقط، أدرك أن طبيعتنا الشرقية تسيء تربية الذكور ..

وربما أكثر مما ينبغي ..

لقد اعتدنا منذ مولدنا، أن نتعامل باعتبارنا الجنس الأرقى، والأفضل، وصاحب كل الحقوق، وأنكن الجنس الأدنى، والأقل، والأضعف ..

اعتدنا هذا؛ لأنه هكذا كانوا يربوننا، ويتعاملون معنا، منذ تفتحت عيوننا على الحياة والدنيا ..

ومع مرور الوقت صدقنا الكذبة ..

واعتنقناها ..

وتشبثنا بها ..

ولأننا تربينا على أن نزهو بذكورتنا، وليس برجولتنا، فقد اكتفينا بها، ولم نشعر بأية حاجة إلى العمل، والجهد، والكفاح، والسعى إلى التفوق فى كل مجالات الحياة والدنيا ..

ولكنكن تربيتن على العكس تماماً ..

الأنوثة كانت بالنسبة لكن هواناً، وضعفاً، ودنواً ..

لذا فقد جاهدتن لإثبات وجودكن ..

وقاتلتن ..

وكافحتن ..

ومع مرور الوقت ، تفوقتن ..

ليس فى مجـالات الدراسـة والعلم فحسـب ، كمـا توضـح نتـائج الكليات والمدارس ..

ولكن فى معترك الحياة أيضًا ..

فوفقًا للمعادلة الأساسية ، يتفوقَ المكافح ، ويضعف المتراخى ..

أو كما قرأت قديمًا ، فى روايةَ (ويلز) الشهيرة (آلة الزمن) ..

الجنس المقاتل يتفوقَ ويقوى مع الزمن ، ليفترس الجنس المنعم فى النهاية ..

فكرة بدت لنا خيالية يومًا ..

ثم أصبحت حقيقة ، فى زمننا هذا ..

والمؤسف أننا لم ندركها ..

أو نفهمها ..

أو نستوعبها ..

فقط ، فوجئنا بها ..

تمامًا كما فوجئت أنا بما حدث ..

فبلا مقدمات ، وبعد سنوات من الحب والعشق ، فوجئت بك تتراجعين ..

وتغضبين ..

وتنفرين ..

حبك كله انقلب إلى حنق ..

وسخط ..

ورفض ..

وبلا مقدمات أيضًا ، فوجئت بك تؤكدين أن شعورك نحوى ، لم يعد أبدًا كما كان ..

لم يعد حبًّا ..

أو عشقًا ..

أو حتى احترامًا ..

لقد احتملت طويلاً أخطائى ..

سخافاتى ..

وأنانياتى ..

احتملتها طويلاً ..

وكثيرًا ..

احتملتها بحب ..

وصبر ..

وأمل ..

ومن الواضح أنك قد فقدت فجأة ذلك الأخير ..

الأمل ..

فقدته ، وفقدت معه كل شىء ..

وأى شىء ..

وأعترف أن هذا قد صدمنى فى البداية ..

صدمنى ، وهزّ حتى أعمق أعماقى ..

هذا لأننى أحببتك بحق ..

وبعمق ..

وبأنانية أيضًا ..

أحببتك كما لم أحب مخلوقًا من قبل ..

ولكن ليس كما ينبغى أن أحب ملاكًا مثلك ..

ليس كما ينبغى أن أمنحك ..

أو أعشقك ..

أو أعطيك ..

ولكننى ، وعندما جلست أراجع الموقف كله ، وعندما تنصلت من غرورى ، وأنانيتى ، وثقتى الزائدة بنفسى ، وأجبرت عينىّ على رؤية حقيقتى ، أدركت أنك على حق تمامًا ، فى موقفك الجديد هذا ..

وأننى مخطئ فى حقك ..
وإلى أقصى حد ..
لذا ، فلم يعد هدفى الأوّل هو الإبقاء عليك ، وعلى قربك وحبك ..
لم يعد من حقى حتى أن أطالبك بهذا ..
بل أصبح كل ما ينبغى علىَّ أن أفعله ، هو أن أعتذر ..
أن أركع على ركبتىَّ أمامك ، لأعترف بخطئى ، وأعلن أسفى ..
لو أن هذا يمكن أن يعبِّر عما يدور فى نفسى ..
آسف يا حبيبتى ؛ على أننى لم أقدِّرك حق قدرك ..
آسف ؛ لأننى لم أمنحك ما تستحقين ..
لم أعطك ما تريدين ..
أو أمنحك ما ترغبين ..
آسف لأننى أضعت سنوات من عمرك ..
وحبك ..
وعطائك ..
وروعتك ..
آسف ألف مرة ..

بل ألف ألف مرة ..

إننى حقًا لا أستحق رائعة مثلك ..

لا أستحق لحظة واحدة ، من لحظاتك المدهشة ..

ولست أحلم بعودتك ..

أو حتى بمغفرتك ..

كل ما أتمناه هو أن تسعدى فى حياتك كلها ..

بدونى ..

وأن تتذكّرى دومًا ، أن آخر كلمة سمعتها منى هى آسف ..

آسف يا حبيبة العمر كله ..

آسف ؛ لأننى ضحية موروثات ذكورية عريقة ..

آسف ..

آسف ..

آسف ..

حتى آخر العمر .

* * *

القـرار ..

(قصة قصيرة)

« العالم أصبح فاسدًا .. » ..

هتف بالعبـارة فـى حنق سـاخط ، وهـو يتحـرّك فـى عصبيـة ، داخل حجرة مكتبـه الضخمـة ، قبـل أن يلـوّح بذراعه ، مستطردًا :

ـ العنف انتشر على نحو غير مسبوق ، ورائحة الفساد تزكم الأنوف ، وتكتم الأنفاس .. الدول الغنيـة تزداد ثراءً ،

والفقراء ينطحنون ويموتون جوعًا ومرضًـا ، ولا أحد يمد يد المساعدة لأحد ..

كانت الحجرة خالية إلا منه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد واصل الحديث ، وكأنه يخطب فى جمع كبير :

ـ كل الدول تعانى من فسق المترفين .. أصحاب الأمـوال والجاه والنفوذ أصبحوا فوق القانون .. لا أحد يصل إليهم ، أو يعاقبهم على أفعالهم ، وهذا يصيب باقى المجتمع بإحباط غاضب .. الثورة تتكوّن فى أعماق الكل ، ولا تنتظر سوى الشرارة التى تفجّرها ، والتى تحوّلها ، فـى لحظـة واحدة ، إلى حمم بركانيـة ملتهبـة ، قادرة على ابتلاع كل شـىء أمامها ، والتهامه بلا رحمة أو هوادة ..

انطلقت فى أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، كالحمم التى تحدّث عنها منذ ثوان ، قبل أن يعـود إلـى مقعـده الكبير ، ويلقى جسده عليه ، متابعًا فى حدة :

ـ وعندئذ لـن تصلـح الجيـوش ، أو حتى وسـائل الأمـن والسـيطرة ، التـى تحيـط بهـا الحكومـات أنفسـها ، وتستخدمها لتكميـم أفـواه شـعوبها ، وبث الرعب فـى نفوسها ، وإجبارها على الطاعة والخضوع .. لن يصلح كل

هذا ، إذا ما اشتعلت الأمور ، فى إيقاف نهر الغضب الثائر .. حكومات عديدة تصورت أن سياسة القمع والترهيب تضمن لها البقاء والاستمرار ، وظلت على تصورها هذا ، حتى سقطت وانهارت ، وداستها الأقدام الغاضبة ، أو علقتها الأيادى الثائرة ، على حبال المشانق ..

مط شفتيه ، وعاوده ذلك الغضب الساخط ، وهو يضيف :

ـ والحل ؟! لايوجد حل .. لايوجد سوى حل واحد .. أن يفنى هذا العالم الفاسد كله ، ليبدأ بداية جديدة ؛ وقد تطهر من كل فساده وموبقاته .

نهض من مقعده بحركة حادة ، واتجه نحو النافذة ، وتطلع عبرها لحظة ، قبل أن يطلق زفرة ملتهبة جديدة ، قائلاً :

ـ سيبقى البعض حتمًا .. الإنسان لم يخترع ـ على الرغم من جهوده المستمرة ، فى مجال الشر والتدمير ـ سلاحًا واحدًا ، يمكنه إبادة الحياة تمامًا ، من على وجه الأرض .. حتى تلك القنبلة فوق الأمينية الأخيرة ، قالوا إنها ستفنى ثمان وتسعين

فى المائة ، من صور الحيـاة ، علـى كوكب الأرض .. وليس مائة فى المائة .. سيتبقى إثنان فى المائة إذن ، وأنا واثـق من أن القدر سينتخب الأفضل عندئذ .

صمت بضـع لحظات ، وهو يتطلّـع إلى ساحة قصـره الكبيرة ، الممتدّة على مدى البصر ، قبل أن يتابع :

ـ هذا لأن الحياة لابد وأن تستمر .. خاصـة وأن تلك القنبلة الجديدة قادرة علـى إفنـاء البشر والحيوان والطير فحسب ، أما المبانى ، والمنشـآت ، والتكنولوجيا ، وكذلك النبات بأنواعه ، فكلها سيبقى ... سيبقى فى خدمـة الاثنين فى المائة ..

تنهّد هذه المرة ، مضيفاً :

ـ الحياة ستستمر ، دون فساد وخراب ودمـار .. لن يكون هناك مبرّر للتناحر والتقاتل .. على الأقل لزمن قادم طويل .. زمن ستحمل فيه الأرض كل خيراتها ، لعدد قليل من البشر .. لن تكون هناك حاجة لأجهزة شرطة ، تسيطر وتتحكم ، بأكثر مما تخدم وتحمـى .. أجهزة تنافس عصابات اللصـوص والبلطجية ، بدلاً من أن تجند جهودهـا للقضـاء عليهـا ، وتحجيمها ، وتأمين المواطن العادى البسيط من شرورها وعنفها ..

عاد يلوّح بذراعه ، فى سخط عنيف ، مكرّرًا :

ـ عالم فاسد .. فاسد .. فاسد ..

وصمت لحظـة ، أطلّ خلالها مقت مخيف من عينيه ، وتقاطر على لسانه ، وهو يضيف :

ـ عالم لايستحق البقاء .

لم يكد يكمل عبارته ، حتى سمع طرقات حذرة على باب حجرة مكتبه ، فاعتدل فى وقفة عسكرية صارمة ، وهو يقول :

ـ ادخل .

دخل قائد القوات إلى حجرته ، وأدّى التحية العسكرية فى قوة ، قبل أن يسأل :

ـ هل اتخذت قرارك يا سيادة الرئيس ؟!

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يسأله :

ـ هل راجعت الخبراء ، وتأكّدت من أننا آمنون تمامًا من تأثيرها ، فى مخبئنا هذا ؟!

أجابه قائد القوات فى سرعة :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .

التقط نفسًا عميقًا ، ثم قال فى حزم صارم آمر :

ـ اطلقها إذن .. اطلق القنبلة فوق الأمينية .

قالها ، وتألقت عيناه فى ظفر جنونى ، على الرغم من أنه كان يشعر بالارتياح والثقة فى أعماقه ..

لقد اتخذ قراره بمنتهى الحزم والحسم ، و ...

والاقتناع .

* * *

اللحن المفقود

(قصة قصيرة)

مستحيل !

ما يطلبونه منه مستحيل تمامًا !

كيف خطر هذا ببالهم ؟!

كيف يجرءون ؟!

لقد فقدها منذ أقل من عام واحد ، وعذاب قلبه وجراحه لم تندمل بعد ، فكيف كانوا بهذه القسوة ، ليطالبوه بلحن جديد ..

مستحيل !

مستحيل !

إنها لم تكن زوجته فحسب ، وإنما محبوبته ، وعشقه ، وروحه ..

الكل كان يعرف قصة الحب الملتهب ، الذى جمع بين قلبيهما طوال عامين كاملين ، قبل أن يرتبطا بالزواج ..

وكانا أسعد زوجين ، عرفهما الحقل الفنى ، عبر تاريخه الطويل ..

حياتهما كانت قصة حب لاتتوقَّف أو تنتهى ..

قصة حب أثارت إعجاب الكل ..

ودهشتهم ..

وحسدهم ..

وحقدهم أيضًا ..

فالحقدون اندسوا فيها ، وحاولوا إفسادها مرات ومرات ..

ومن أعماق حقدهم الأعمى ، خرجت الأقاويل والشائعات ..

فى البداية نسبوا إليه خيانات عاطفية ، لم ترد بخاطره قط ..

وعندما سخرت هى من هذا ، انقلبوا إلى وسيلة أخرى ،

فأشاعوا أن حبها له زائف ، وأنها تتظاهر به ، وتبالغ فيه ، لتحظى بألحانه وموسيقاه الرائعة ..

ليجعل منها نجمة ..

بل وتمادوا ليشيعوا وجود علاقة حب ، تربطها بممثل شاب ، في مثل عمرها ، وأنهما يلتقيان كثيرًا من خلف ظهره ..

وكان دوره هو ليسخر من كل هذا ..

الأغبياء لايدركون كم يحبها وتحبه ..

لايعلمون أن علاقتها واتصالاتها بذلك الممثل الشاب ضرورية ، لأنهما يستعدان للقيام ببطولة فيلم غنائي جديد ..

مجرد علاقة عمل لا أكثر ..

ولكنهم لايفهمون ..

ولايدركون ..

وها هم أولاء الآن يطلبون منه لحنًا جديدًا ، لأغنية شبابية مرحة ، بحجة مرور عام كامل على مصرعها في حادث سيارة ..

وعلى احتياجه الحتمى لأجر اللحن الجديد ..

وربما كانوا على حق فى النقطة الأخيرة ..

علم بلا عمل ، استهلك كل مدخراته ، والتهم كل استثماراته ، وتركه مع ما يكفى لإبقائه حيًا فحسب ..

ربما كان بحاجة شديدة للمال بالفعل ..

ولكن مستحيل !

لن يمكنه أن يصنع لحنًا واحدًا ، وهى تحتلّ كل قلبه ..

ما زالت تحتلّ كيانه كله ، كما لو أنها ما زالت على قيد الحياة ..

لا يمكنه نسيانها يومًا واحدًا ..

أو حتى لحظة واحدة ..

لقد قضت معه عدة شهور ، ولكنها غرست نفسها فى كل خلية من خلاياه ..

إنه يشعر بها ..

يراها ..

يسمعها ..

ولكن بعقله وقلبه فقط ..

لا .. لن يمكنه تلحين جملة موسيقية واحدة بدونها ..

ومن المستحيل أن يمنحهم لحنًا هزيلاً ركيكًا ، بعد كل ما حققه من شهرة ومكانة !

مستحيل !

مستحيل !

ترك دموعه تنهمر على وجهه ، وهو يلتقط العود الأثرى ، الذى ورثه عن والده الراحل ، وينحّيه جانبًا ، ثم يتجه إلى حجرتها ..

كثيرًا ما جلس في تلك الحجرة لساعات وساعات ، يتأمّل كل ما لمسته أصابعها في حياتها ..

أثوابها ..

أدوات تجميلها ..

مجوهراتها ..

وحتى أوراقها ..

وفى حجرتها ، لم يستطع كبح مشاعره ، فانفجر باكيًا ، وهو يلقى جسده على أقرب مقعد إليه ..

لا يمكنه احتمال فقدها ..

لا يمكنه أبدًا ..

بكى طويلاً ، لساعة أو يزيد ، قبل أن يجفِّف دموعه ، ويطرد فكرة اللحن الجديد تمامًا من ذهنه ..

وفى حزن دافئ ، فتح درج مكتبها الصغير ، ليطالع آخر صورها ، و ...

وفجأة ، سقط شىء ما بين قدميه ..

مفكرة وردية صغيرة ، كانت تختفى أسفل الدرج ، وسحبها هو بيده دون أن يدرى ..

وفى بطء ، انحنى يلتقط تلك المفكِّرة الصغيرة الوردية ، التى تحمل على واجهتها قلبًا كبيرًا بارزًا ..

يا للرقة والنعومة !

هكذا ذوقها دائمًا ..

ناعم ، رقيق ، أنيق .. متميز ..

وبقلب مرتجف ، فتح المفكرة ، وألقى نظرة على ما بداخلها ..

إنها يومياتها ..

الأحداث التي تعيشها ، وتدونها بخطها الرقيق الصغير يومًا فيومًا ..

وخفق قلبه في عنف ..

إنه يقرأ ، ولأول مرة في حياته ، ما كتبته هي عن نفسها ..

عن حياتهما ..

وحبهما ..

ومع دقات قلبه القوية ، راحت عيناه تلتهمان كلمات المفكرة الوردية ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

لقد كتبت بيدها وخطها يوميات قلبها وحبها ..

كتبت اسمها ..

واسمه ..

واسم ذلك الممثل الشاب ..

وكان كل سطر فى مفكرتها يحمل حبًا بلا حدود ..

ولكنه حب لم يملأ قلبه بالسعادة ..

بل بالذعر ..

وطوال الليل ، راح يقرأ يومياتها ومشاعرها ..

ويقرأ ..

ويقرأ ..

ومع أولى نسمات الفجر ، التقط عوده الأثرى ، وراح يضع أولى نغمات لحنه الجديد ..

اللحن الذى فقد ، طوال عام كامل ..

دون مبرر ..

وعندما استقبل الجمهور لحنه الجديد بإعجـاب جارف ، بعد عدة أيام فحسب ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة سعادة جارفة ..

ابتسامة لاتحمل أثرًا للحزن ..

أدنى أثر .

* * *

الموت حياً (قصة قصيرة)

حبيبتى ..

اسمحى لى أن أستخدم لقب حبيبتى لآخر مرة ، وأنا أخط إليك هذا الخطاب ، الذى ربما لن أرسله إليك أبدًا .. اسمحى لى أن أخاطبك ، ولآخر مرة ، باعتبارك الزهرة ، التى تفتَّحت فى قلبى ، وأينعت فى كيانى ، ومنحتنى أجمل وأعظم وأمتع سنوات عمرى ..

لست أدرى ، حتى وأنا أجلس أمام أوراقى وأقلامى ، لماذا أكتب لك خطابى هذا ، بعد أن لفظ حبك لى أنفاسه الأخيرة فى مسامعى ، ولا لماذا لم أستسلم للقدر ، الذى حرمنى منك ، ومن حبك ، ومن لحظات رائعة ، كنت أستمتع فيها بقربك ، ولكن ربما لا أكتبه لك ، ولكن لنفسى ..

نفسى التى ألومها ألف مرة ، فى كل لحظة ؛ لأنها حتمًا السبب فى تحول مشاعرك عنى ، وانصرافها إلى غيرى ...

فعندما غزل الحب خيوط عشقك فى قلبى ، شعرت به ينبض ، لأول مرة فى حياتى ..

ينبض نبضًا حقيقيًا ، له نغمات أعذب موسيقى سرت فى وجدانى ، منذ تفتَّحت عيناى على الدنيا ، وأدركت لحظتها أننى

لم أحب قط قبل أن التقيك ، ولم أعشق أبدًا ، قبل أن تقـع عينـاى على وجهـك الهادئ الصـبوح ، وابتسامتك المشرقة ، وبسـاطتك الرائعة ، التى خلبت لبى منذ اللحظة الأولى ..

وكم كانت فرحتى وسعادتى ، عنـدما أدركت أنـك تبادليننى حبًا بحب ..

بل وكنت أكثر منى حبًا ، وأطهر نفسًا ، وأغزر مشاعرًا ..

والأهم ، أنك كنت الأكثر عطاءً وتفانيًا ..

وهنا تكمن المشكلة ..

فطوال حياتى ، اعتدت أن أعطى أكثر مما آخذ ، ولكـن معك ، انقلب الحال واختلف ، ولست أدرى حتى كيف ...

فجأة ، وجدت نفسى أنهل منك أكثر مما أعطيك ، وظللت أنـت تعطين دون حساب ، ودون انتظـار أدنى مقابل ، ممـا أصـابنى بطمع لم آلفه ، ورحت آخذ منك أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وظللت تعطين .. وتعطين .. وتعطين ..

ومع الوقت ، اعتدت عطاءك ، واعتدت طمعى وشراهتى ..

وحتمًا جاءت لحظة الانكسار ..

ورويدًا رويدًا ، رحت تبتعدين عنى ..

كنت ما زلت تعطين بلا تقطير ..

وكنت أنهل بلا حساب ..

ولكن مشاعرك لم تعد صافية بسيطة كما كانت ..

عطاؤك لم يختلف ، ولكن مشاعرك تباعدت ..

وتباعدت ..

وتباعدت ..

وعندما انتبهت إلى هذا ، كان الأوان قد فات ...

عندما انتبهت ، كان قلبك قد ملّ أنانيتى ، وإسرافى فى الأخذ ، وكان عقلك قد أرهقته متاعبى ومشاكلى المتصلة ، وكان حبى قد تسلل خارج قلبك ، حتى لم تعد نفسك تحتمله ، ولم يعد كيانك يرغبه ..

والعجيب أننى ، عندما بدأ كل هذا ، كنت ألاحظ إعجابك الصامت بصديق مشترك ، وكنت أشاركك الإعجاب به ، ولكن

أنانيتى ، وثقتى المفرطة فى حبك لى ، منعانى من الانتباه إلى ما يمكن أن يولِّده هذا ، أو يفعله بقلب مرهف رقيق كقلبك ..

حتى جاء ما لا يمكن الإفلات منه ..

في لحظة ، أراد القدر أن يحسم الأمور ، فتوقفنا عن اللقاء طويلاً ، لظروف خارجة عن إرادتى أنا على الأقل ..

وابتعدنا ..

ابتعدنا طويلاً ..

وكثيرًا ..

وربما كنت أتصوَّر أيامها أن حبنا حقيقة ثابتة راسخة ، وأنه حتى النوائب والزمن ، لن يمكنهما النيل منه ..

ولكننى كنت واهمًا ..

إننا لم نبتعد بجسدينا فقط ..

ابتعدنا حتى بمشاعرنا ..

وهنا ، ومع قربه اليومى منك ، تحقَّق المثل القديم ..

القريب من العين ، قريب من القلب ..

والبعيد عن العين ، بعيد عن القلب ..

كنت أنا بعيدًا ، وكان هو قريبًا ، وكان قلبك ما زال ينبض ..

ويحب ..

ويهفو ..

ولكننى ، وبكل أسف الدنيا ، لم أعد أحظى بلمحة منه ..

كل ما بقى لديك ، هو إحساسى بالوفاء ، واقتناع بالولاء ، وصراع فى الأعماق ، بين قلب يحب ، وعقل يقاوم .. وهنا شعرت ..

وخفت ..

بل ارتعبت ..

وفى لحظة ما ، أقنعنى عقلى بأنه من الضرورى أن نفترق ..

من الضرورى أن أتركك لقلبك ..

لحبك ..

لشبابك ..

لعصرك الذهبى الجميل ..

ولكن قلبى كان يقاوم ..

ويقاوم ..

ويقاوم ..

فرق كبير جدًا بين ما يقنع العقل ، وما يرضى القلب ..

فالعقل يدرك أن الحب ليس أبدًا أنانيًا ..

الحب هو الدافع الوحيد فى الدنيا ، الذى يجعلك ترضين بسعادة من تحبين ، وتسعين إليها ، حتى لو كان فيها حزنك أنت ..

وألمك ..

وعذابك ..

العقل يدرك هذا ..

ولكن القلب يتمزّق لمعرفته ..

وبعقلى ، عرضت عليك أن نفترق ، وأن تمضى فى حياتك ، وتصنعى المستقبل ، الذى يضمن لك السعادة والهناء ..

وبقلبى ، كنت أتمنى ألا يحدث هذا ..

أبدًا ..

وفى البداية ، رفضت أنت العرض بشدة ..

رفضته ، ليس من منطق الحب ، ولكن من منطق الواجب ..

وفى هذا أيضًا ، فرق كبير جدًا ، بين ما يقبله العقل ، وما يرضاه القلب ..

عقلك كان يرفض التخلّى عنى ، بعد سنوات الحب الطويلة ..

وقلبك كان يتمنى هذا ..

ويرغبه ..

ويريده ..

بشدة ..

وكلما كنت أشعر بتباعدك ، كنت أكرّر عرضى ..

وتكررين رفضك ..

وكان هذا يجعلنا نتباعد أكثر ..

ويجعل الأسوار بيننا ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

وعندما أفقت ذات يوم ، وأدركت أن الأسوار قد بلغت ذروة ارتفاعنا ، أصررت أن نلتقى ..

ونتحدث ..

كان ذلك اليوم ، الذى التقينا فيه ، يوافق الذكرى العاشرة ليوم

حبنا ، ورأيت ، ربما لأننى ما زلت أحتفظ ببقايا رومانسية ، أنه أفضل يوم لحسم الأمور ..

وعندما التقينا ، كنت بطبيعتك الطاهرة ، تحاولين منحى شيئًا من السعادة ..

وهذا ما أحببته فيك دومًا ..

وعشقته ..

واحترمته ..

كنت دومًا تبذلين كل الجهد ؛ لإسعاد من حولك ، على الرغم مما يجشّمك هذا من تعب ، ومشقة ، وتضحية ..

وكنت مصرًا على المواجهة ..

وبعد احتفال بسيط ، قدّمت لك فيه آخر هدية ، أو هدية الوداع كما أسميتها فى أعماقى ، واجهتك ..

أخبرتك بكل ما أشعر أنه يدور فى أعماقك ..

شرحت لك كيف أن كل ما أبتغيه هو سعادتك ..

وهناؤك ..

ومستقبلك ..

أبلغتك أنك لست مدينة لى بأى شىء ..

حتى المشاعر ..

وكنت مترددة ..

خائفة ..

لذا فقد ساعدتك بقدر إمكانى ، حتى تتجاوزى هذا ، وتصارحينى بما يعتمل فى نفسك ..

ويبدو أننى نجحت ..

لأنك بحت بما فى داخلك ..

أخبرتنى أنك تشعرين بحب آخر ، ينمو فى أعماقك ..

حب تجاه ذلك الصديق ..

كان هذا ، على الرغم من توقعى إياه ، أشبه بخنجر ، انغرس فى أعمق أعماق قلبى ، بمنتهى منتهى القسوة ..

وبينما قلبى ينزف ألمًا ، حاولت جاهدًا أن أخفف عنك الأمر ..

كان عقلى يتحدث إليك بهدوء وروية ، ورصانة وخفوت ، وقلبى يصرخ وينتحب ، ويبكى بدموع من حمم ملتهبة ، تسرى فى عروقى كألف ألف نار ، لتشعل كل ذرة من كيانى ، وتحمى كل لمحة من وجودى ..

وبعد اللقاء والمواجهة ، كان من المحتَّم أن نفترق ..

فافترقنا ..

افترقنا ، وكيانى ممزَّق ، بين عقل يدرك أن هذا حقك ، ولا أحد فى الكون يمكنه منازعتك فيه ، وأن شبابك وجمالك يفتحان أمامك مستقبلاً مشرقًا ، لا ينبغى لى ، أو لغيرى ، اعتراض طريقه ، ولا أن يحرم الدنيا من زوجة رائعة ، ولم أكثر روعة ، ومن قلب متفتّح ، ونفس طاهرة ، وحنان يكفى لإسعاد الدنيا كلها ، ولا من مشاعر نادرة ، تهفو كل خلية فى الكون إلى لمحة منها ، وقلب يدعونى فى إلحاح إلى القتال ؛ للاحتفاظ بك ..

وسرعان ما حسم عقلى الصراع ..

افترقنا ، وقد عاهدتُ نفسى على أن أبتعد تمامًا عن طريقك ، حتى تكونى حرة فى حياتك ، وحبك ، واختياراتك ، وأن أقتل لواذع قلبى ، وأكتم نحيب حبى ، وأذبح آلام وجدانى ، وكل هذا فقط ، لتسعدى ...

حتى لو كان هذا مع غيرى ..

صحيح أنه من المستحيل نسيان حب عشر سنوات ، حتى فى عشرة أشهر ، ولكن الصراع انتهى ..

الموت حبًا (قصة قصيرة)

انتهى الصراع بين عقلى وقلبى ..

انتهى ؛ لأنه لم يعد لدىّ قلب ..

فعندما غادرت ، انتزعته معك ، ولم يعد ينبض كما عهدته ..

لم يعد ينبض ؛ لأنه كان ينبض فقط بحبك ، ويخفق فقط من أجلك ..

وبعدك ، لا يحق له أن ينبض ، ولا يمكنه أن يخفق ..

كل ما بقى لى هو عذاب الندم ؛ لأننى حرمتك من حريتك لأعوام ، لا يدرى سواك ، والله (سبحانه وتعالى) عددها ..

الندم على سنوات عمرك الذهبية ، التى قتلتها بأنانيتى ، ولهفتى ، ورغبتى العمياء فى قربك منى ..

سنوات كنت فيها إلى جانبى ، بدافع الواجب ، لا الحب ..

وما أعظمك ..

ما أروع عطاءك الماسى العظيم ..

من أجله ، جلست أكتب ما أكتبه ..

ولكن ، هل يمكن أن أرسل إليك هذا الخطاب ؟!..

لا أظن ..

لو أرسلته ، ستتصورين أننى أحاول استمالتك مرة أخرى ..
وأقسم إننى لم ولن أحاول هذا ..
لقد كانت السنوات السابقة عظيمة ؛ لأننى تصوّرت أن كل منا لا يعشق سوى الآخر ، ولا يمكن أن يعشق سوى الآخر ..
إن قلبى ملكك ، وقلبك ملكى ..
وإلى الأبد ..
أما الآن فأنا أدرك أنه لم يعد لى ..
لن أرسل الخطاب ؛ لأننى لن أجرؤ ..
ولن أقدر ..
انسينى إذن يا حبيبة كل ذرة فى كيانى ..
امضى فى حياتك ، ولا تلتفتى خلفك لحظة واحدة ...
وسامحينى ، واغفرى لى ...
اغفرى لى سنوات أضعتها من عمرك ..
سامحينى على مشاعر سلبتك إياها ، دون وجه حق ..
اغفرى لى وسامحينى ، فما تصوّرت أبدًا أننا سنفترق يومًا ..

ولا تنشغلى ولو لوهلة بمشاعرى أو حياتى ..

فقد ذابت مشاعرى ..

ولم تعد لى حياة ..

كنت حياتى ، وحبى ، وكيانى ، ووجودى ..

وبعدك صرت مجرّد كيان بشرى فارغ ..

جثة هامدة ، تمشى على قدمين ..

مجرّد بشرى ، حكمت عليه الدنيا بعقوبة الحياة ، وينتظر فى شوق ولهفة ، لحظة الإفراج ..

ولحظة الرحيل ..

أصبحت حيًا ، فى عيون الآخرين ، وميتًا ، فى واقعى الفعلى ..

وما أشق الموت ..

حيًا .

أنـا .

* * *

بشرة بيضاء ..

(قصة قصيرة)

خفق قلب (نهلة) في قوة ، وهي تلتقط أنبوبة الكريم الجديد من الصيدلي ، وراحت تلهث في انفعال عجيب ، أدهش الصيدلي نفسه ، وهي تنقده الثمن ، ثم تضمّ الأنبوبة إلى صدرها في سعادة جمة ، وتهرع بها إلى منزلها ..

وحتى في منزلها ، بدت الدهشة على وجه أمها ووالدها ، مع تلك الابتسامة الكبيرة التي تملأ وجهها دقيق الملامح ، ومرحها الزائد عن الحد ، وهي تلقي عليهما التحية ، ثم تهرع إلى حجرتها ، وتغلق بابها خلفها في إحكام ..

وفى دهشة حائرة ، غمغم والدها :

ـ ماذا أصاب البنت ؟! هل ربحت جائزة ما ؟!

تطلّعت الأم فى حنان إلى باب الحجرة ، قبل أن تغمغم بتسمةً :

ـ ليست الجائزة ما يسعد البنات ، إلى هذا الحد .

هتف مستنكرًا :

ـ وما الذى يمكن أن يسعدهن إذن ؟!

اتسعت ابتسامتها ، وهى تقول فى خفوت حنون :

ـ الرجال لا يمكنهم فهم هذا قط .

مطَّ الأب شفتيه ، وأشاح بوجهه ، ليدفنه فى جريدة الصباح ، متمتمًا :

ـ يا للنساء !

أما (نهلة) ، فقد راحت تدور فى حجرتها بسعادة غامرة وكأن أنبوبة الكريم ، التى ابتاعتها من الصيدلية ، تحوى كل أسرار السعادة والهناء ، فى الكون كله ..

وبكل لهفتها وسعادتها ، انطلق عقلها يبحث عنه ..

عن ذلك الذى خفق له قلبها لأوّل مرة ، منذ وعت عيناها الدنيا ..

(أيمن) ..

يا إلهى .. كم تحبه ..

كم تذوب عشقًا وسعادة ، كلما وقع بصرها عليه ..

إنه ، من وجهة نظرها ، مثال للشاب الكامل ، وفارس الأحلام ، الذى تحلم به كل فتاة ..

وسيم ، أنيق ، هادئ ، مهذّب ، وابن لعائلة طيبة ميسورة الحال ..

أيّة فتاة فى الدنيا ، يمكن أن تسقط أسيرة حبه ، من النظرة الأولى ..

من وجهة نظرها طبعًا ..

ولكن المؤسف ، فى كل هذا ، هو أنه لا يشعر بوجودها قط ..

صحيح أنه جم النشاط ، له روح اجتماعية طيبة ، وصداقات بلا حدود ، داخل الجامعة وخارجها ..

إلا أنه لم يشعر بوجودها ولو مرة واحدة ..

ربما لأنها بطبيعتها خجولة منطوية ، لا تميل إلى الاختلاط أو الاجتماعيات ..

أو لأنها لا يمكن أن تلفت انتباه أحد ..

وخصوصاً من كان محاطاً بالاهتمام مثله ..

وما إن جال هذا بخاطرها ، حتى توقف خفقان قلبها ، وفوجئت بدلو من المرارة ينسكب فى أعماقها ..

وبكل تلك المرارة ، مالت تتطلع إلى وجهها فى المرآة ..

كانت ضئيلة الجسد ، دقيقة الملامح ، عادية القسمات ، كما أنها كانت ، وهذا هو الأسوأ من وجهة نظرها ، خمرية البشرة ..

ومن المؤكد ، وفقًا لتقديرها ، أن فتاة خمرية مثلها ، لا يمكن أن تلفت انتباه شاب وسيم مثله ، محاط دومًا بالبيضاوات الجميلات ، اللاتى تصلح الواحدة منهن للعمل كنجمة سينمائية ، تخلب لب المشاهدين فى كل مشهد ..

وهى تؤمن تمامًا ، بحكم مشاهداتها وتجاربها المحدودة ، أن الرجال فى العالم العربى ، لا يميلون أو ينبهرون إلا ببيضاوات البشرة فحسب ..

كثيرًا ما كانت تسمع الكل يمتدحون فتاة ما ، ويصفونها بأنها بيضاء كالقشدة ..

حتى أمها ، كانت تصف دومًا جارتهم (دلال) بهذه الصفة ، للتأكيد على جمالها وحسنها ، وتبرير تهافت العرسان عليها ، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ..

وفى كل مرة يردد فيها أحد هذا ، كانت تنكمش فى أعماقها ، وتنزوى بمشاعرها ، وتخفى مرارتها وحزنها ، وهى تتطلع إلى بشرتها الخمرية ، التى لم توصف بالجمال قط ..

وحتى فى كل مرة تشاهد فيها مذيعات التليفزيون ، أو مقدمات البرامج ، أو حتى ممثلات السينما ، كانت تدرك أن البشرة البيضاء ، والبيضاء وحدها هى سر الحسن والجمال .. والحب ..

ولكنها اليوم وجدت الوسيلة إلى عالم الجمال ..

ذلك الكريم الذى شاهدت إعلانه فى التليفزيون ..

الكريم الذى يمنح السمراوات والخمريات بشرة بيضاء ..

حتى فى الإعلان ، لم يهتمّ الشاب بالفتاة إلا بعد أن اكتسبت بشرة بيضاء ..

هذا هو الجمال الذى يعترف به الكل ..

الجمال الحقيقى ..

وفى حماس ، أخرجت أنبوبة الكريم من علبتها ، وقرأت النشرة المصاحبة جيدًا ، ثم بدأت تدهن وجهها بالكريم ، وهى تحلم باليوم الذى تمتلك فيه سر الجمال والحسن ..

وبينما تحلم بهذا ، سمعت دقات على باب حجرتها ، مع صوت والدتها الحنون الدافئ ، وهى تسأل فى حذر :

- (نهلة) .. هل نمت ؟!

أسرعت تفتح الباب لأمها ، وهى تهتف بابتسامة كبيرة :

- بل أنا مستيقظة يا أمى .

تطلّعت إليها أمها بحنان متسائل ، قبل أن تدلف إلى حجرتها ، وتجلس على طرف فراشها ، متسائلة فى حذر أكثر :

- كيف حالك ؟!

ضحكت (نهلة) ، قائلة :

- بخير .. هل أتيت فقط لهذا ؟!

ارتبكت الأم ، وحاولت أن تجد فى نفسها الجرأة ؛ لتلقى السؤال الحقيقى ، الذى يشغل ذهنها ، إلا أن لسانها تعلّق فى حلقها ، وهى تدور فى الحجرة ببصرها فى حيرة ، و ..

وفجأة ، وقع بصرها على أنبوبة الكريم ، وكالغريق الذى تعلّق بقشة ، التقطت الأنبوبة ، متسائلة :

- هل ابتعت كريمًا جديدًا ؟!

أومأت (نهلة) برأسها إيجابًا ، وهى تبتسم فى سعادة ، فألقت أمها نظرة على الكريم ، قبل أن تهتف فى دهشة :

- كريم لتبييض البشرة ؟! فيم احتياجك لشيء كهذا ؟!

هزّت (نهلة) كتفيها ، وأشارت إلى وجهها ، قائلة :

- ما رأيك أنت ؟!

تطلّعت إليها أمها لحظة ، ثم ابتسمت في حنان ، مجيبة :

- رأيي أنك لست بحاجة إليه على الإطلاق .

ضايقتها عبارة أمها ، على الرغم مما فيها من حب ودفء ، فقالت في عصبية :

- دعينا لا نخدع نفسينا يا أمي .. البشرة البيضاء علامة الجمال ، في (مصر) على الأقل .

هزّت أمها كتفيها ، قائلة :

- ربما ، ولكن لكل ذوقه ، وكما يقولون في الأمثال الشعبية : « لكل نوع من الحبوب كيّاله » ..

قالت (نهلة) بعصبية أكثر :

- وماذا لو أن كل الكيّالين لهم منظور واحد ؟!

ابتسمت أمها ، قائلة :

- مستحيل ! لو أن هذا صحيح لما انبهرت (مصر) كلها ، بل وانبهر العالم كله ذات يوم بالفتاة (سعاد حسني) ، واعتبروها رمزًا للجمال والحسن ، وهي خمرية البشرة مثلك .

قالت فى إصرار :

- إنها حالة خاصة .. يكفى أنها كانت نجمة سينمائية .

قالت أمها فى سرعة :

- وكيف أصبحت كذلك ، لو أن الكل يهوى صاحبات البشرة البيضاء فحسب ؟!

أجابتها بسرعة أكبر :

- لأنها موهوبة .

تنهدت الأم ، وكأنما تعلن يأسها من استمرار المناقشة ، ونهضت ، قائلة :

- افعلى ما يروق لك يا (نهلة) .. إنها حياتك وأفكارك يا بنيتى ، ولكن صدقينى .. أجمل ما فى الإنسان هو ما خلقه عليه الله (سبحانه وتعالى) ، وبه وحده سيجد قسمته ونصيبه ..

قالتها الأم ، وخرجت من الحجرة ..

ومن المشكلة كلها ..

ولكن (نهلة) لم تقتنع ..

كيف يمكن أن ينهى حوار بسيط ، كل ما جمعته فى أفكارها وأعماقها لسنوات وسنوات ؟!

كيف ؟!

إنها ستواصل استخدام ذلك الكريم الجديد ، حتى تحصل على البشرة المطلوبة ..

البشرة البيضاء ..

وكم أسعدها أن أتى الكريم مفعوله رويدًا رويدًا ..

فبعد أسبوع واحد ، لاحظت أن بشرتها صارت أكثر ضياءً ..

وبعد أسبوعين ، أصبحت قمحية ..

ثم بيضاء ..

حتى زملاء الدراسة كلهم لاحظوا هذا ..

كلهم أثنوا على حسنها ، وجمالها ، وبياض بشرتها الجديد ..

كل زميلاتها السمراوات سألتها عن اسم الكريم واستخداماته ..

ومع كل هذا التهافت ، اكتسبت نفسها ثقة كبيرة ..

ثقة جعلتها تعترض طريق (أيمن) ذات صباح ، وتسأله :

ـ أستاذ (أيمن) .. أما زالت هناك أماكن شاغرة ، في رحلة (القناطر) ؟!

رأت الدهشة ترتسم على وجهه ، وتنتقل إلى صوته ، وهو يسألها بأسلوبه المهذّب :

ـ هل ترغبين فى الانضمام إليها ؟!

كانت هذه أوّل عبارة يتبادلانها ..

وأول مرة يبدى فيها اهتمامًا بها ..

يومها لم يخفق قلبها فحسب ، وإنما راح يرقص طربًا ، وكأنها ملكت الدنيا كلها ..

ولقد استعدّت لتلك الرحلة بكل ما تستطيع ..

انتقت أفضل وأجمل ثيابها ..

وصفّفت شعرها عند مصفّف شعر معروف ..

ووضعت المزيد من الكريم ..

وعندما ذهبت إلى (القناطر) فى أوّل رحلة تنضمّ إليها ، منذ التحاقها بالجامعة ، كانت تمتلك بشرة بيضاء بحق ..

وثقة بلا حدود ..

ومع نهاية الرحلة ، اتجه هو إليها ، وهو يبتسم ابتسامة عذبة ، ويقول :

ـ آنسة (نهلة) .. اسمحى لى أن أشكرك، على نشاطك وحيويتك وروحك العالية فى الرحلة .. لقد كنت بحق أحد أسباب نجاحها ..

لم يكتف بهذا القول ، الذى فجرّ فى كيانها كل ينابيع الفرح والسعادة ، وإنما احتلَّ المقعد المجاور لها ، ليواصل حديثه معها ، طوال طريق العودة ..

تحدثا حول العديد من الأمور ..

الدراسة ..

والسياسة ..

والفن ..

والرياضة ..

وحتى عن الحب ..

وعندما وصلا إلى الكلية ، صافحها فى حرارة ، قائلاً :

ـ أشكرك مرة أخرى يا آنسة (نهلة) .. لقد كان الحديث معك ممتعًا بحق .. أرجو أن أجد الفرصة لتكرار هذا .

لا يمكن أن تبلغ السعادة هذا الكم أبدًا ..

إنه لم يشعر بوجودها فحسب ، وإنما راق له مجلسها أيضًا ..

لقد أعجب بها ..

بل وربما أحبها ..

كم كانت على حق ، عندما منحت نفسها تلك البشرة البيضاء ..

كم كانت على حق ..

تضاعفت لديها تلك القناعة ألف مرة ، خلال الأسابيع التالية ..

لقد تكرَّر لقاؤهما ، وتكرَّرت أحاديثهما مرات ومرات ..

ليس هذا فحسب ، وإنما صار من المعتاد أن تراهما معًا ، متهمكين في الحديث ، طوال أوقات الفراغ في الكلية ..

ومع مرور الوقت ، أدرك الكل أن (أيمن) يحب (نهلة) ، وأنها بدورها غارقة في حبه حتى النخاع ..

ولكن أحدهما لم يصارح الآخر بهذا قط ..

حتى كانت تلك اللحظة ..

لحظة عادية ، مثل كل لحظات مناقشاتهما ، توقَّف هو فيها فجأة عن الحديث ، وتطلَّع إلى عينيها لحظة ، بكل حب وحنان ودفء الدنيا ، قبل أن يقول دون مقدمات :

- (نهلة) .. أنا أحبك ..

لم يخفق قلبها لقوله ..

ولم يرقص بين ضلوعها فرحة وسعادة ..

لقد وثب فجأة من جسدها ، واستقرَّ بين كفيه ..

وفى عينيه ..

وقلبه ..

كل ذرة فى كيانها أعلنت فرحتها وسعادتها ولهفتها وحبها ..

وكان من الطبيعى أن يفهم ..

وأن يثب قلبه بدوره بين يديها ..

وبكل حب الدنيا ، مال نحوها ، وتطلّع إلى وجهها ، الذى اصطبغ كله بحمرة الخجل ، هامسًا :

ـ هل تعلمين .. أنت صورة مجسّمة لفتاة الأحلام ، التى أبحث عنها منذ حداثتى .. جميلة ، رقيقة ، مهذّبة ، مثقفة ، واعية ، ومن أسرة طيبة .. كل صفة تمنيتها فى زوجة المستقبل ، فيما عدا ..

بتر عبارته بغتة ، وكأنما وجد أنه من غير اللائق أن يكملها ، وامتدّت أصابعه تتسلّل إلى كفها ، فسألته فى اهتمام :

ـ فيما عدا ماذا ؟!

بدا عليه الخجل ، وهو يغمغم :

ـ أمر بسيط ، لا يستحق الذكر .

هتفت بحرارة عجيبة :

ـ أخبرنى إياه .. أرجوك .

ارتبك أكثر ، وحاول أن يبتسم فى خجل وحرج ، ثم لم يلبث أن هزّ كتفيه ، وخفض صوته ، وهو يجيب :

ـ فتاة أحلامى كانت دائمًا خمرية البشرة .

اتسعت عيناها بدهشة بالغة ، وحدّقت فى وجهه بذهول ، جعله يرتبك أكثر وأكثر ، ويلوّح بيده ، قائلاً :

ـ ولكن لا بأس بالبشـرة البيضـاء .. ستصـبح بالنسـبة لى أفضل بشرة ؛ لأنها بشرتك أنت ، و ..

قاطعته فى حزم :

ـ (أيمن) .. هناك أمر أريد أن أعترف لك به .

وفى تلك الليلة ، ألقت أنبوبة الكريم الجديد فى سلة المهملات ..

وتركت بشرتها تستعيد لونها الأصلى مع الوقت ..

لون الحب ..

الحقيقى .

(قصة قصيرة)

دموع الإنترنت

خفق قلب (هبة) فى قوة ، وراح يرتجف فى صدرها كطير مبتل ، سقط وسط جبل من الجليد ، على الرغم من كل ماتشعر به من دفء وحرارة فى أعماقها ، وهى تمدّ أصابعها الرقيقة ، لتضغط أزرار الكمبيوتر ، وتوصله بأسلاك الهاتف ، تمهيدًا لاتصالها بشبكة الإنترنت ..

وبكل جوارحها ومشاعرها ، تعلّقت عيناها بالشاشة الكبيرة ، فى انتظار ظهور رسالته ..

رسالة (نادر) ..

ومرة أخرى ، ارتجف قلبها ، وراح يرقص بين ضلوعها ، مع ذلك الرنين القصير ، الذى سبق ظهور الرسالة ، والتمعت عيناها بحب وحنان جارفين ، وهى تلتهم سطورها القليلة ، فى لهفة ما بعدها لهفة ..

إنه هو ..

أخيرًا عاد إليها ..

عاد بعد أسبوعين كاملين ، لم تصلها خلالهما رسالة واحدةً منه ..

ولا أحد ، فى الدنيا كلها ، يمكن أن يتصوَّر مدى اشتياقها إليه ، ولهفتها عليه ، طوال تلك الفترة ..

هى نفسها لم تكن تتصوَّر أنها تحمل له كل هذه المشاعر ..

بل ولم تتصوَّر أبدًا أن تشعر نحوه بأى شىء على الإطلاق ..

فالعجيب أنها لا تعلم عنه إلا أقل القليل ..

فقط ما أخبرها هو به ..

وبينما انساب بصرها فى نعومة ، على أسطر رسالته المحدودة ، راح عقلها يسبح مع ذكريات قريبة ..

ذكريات عمرها ستة أشهر فحسب ..

ذكريات أول صدمة عاطفية فى حياتها ..

فطوال أعوام دراستها ، وحتى تخرجت من كليتها النظرية ، لم ترتبط (هبة) أبدًا بعلاقة حب ، أو حتى إعجاب ..

كل زميلاتها كن يرتبطن بشباب فى مثل عمرهن ، ويربطن حياتهن وقلوبهن بهم ، ويتحدثن طوال الوقت عن مشاعرهن ، وارتباطاتهن ، وأحلامهن الوردية فى الحياة والمستقبل ..

أما هى ، فلم تكن تتحدث أبدًا ..

بل ولم تشعر قط بما كن يصفنه عن أعماقهن ..

صحيح أن قلبها الصغير كان يهفو للحب والسعادة والارتباط ، ككل أنثى فى عمرها ، إلا أنه لم يخفق قط لأحد زملاء الدراسة ، أو النادى ، أو حتى لابن الجيران ، كما يحدث فى المعتاد ..

وكان هذا يدهش زميلاتها كثيرًا ..

ويدهشها هى أكثر ..

وفى معظم لياليها ، كان قلبها يتساءل : لماذا لاتحب ؟!

لماذا لم تشعر يومًا بأية عاطفة حقيقية صادقة تجـاه أى شاب ؟!

إنها فتاة جميلة ، رقيقة ، مثقفة تنتمى إلى أسرة كريمة محترمة ، لها سمعتها الطيبة فى الحى كله ..

وهى أيضًا نشيطة ، اجتماعية ، تُمارس حياتها الجامعية فى بساطة وثقة ..

ثم إن العديدين من الشبان قد حاولوا التقـرُّب إليهـا والارتباط بها ..

ولقد حاولت أن ترتبط بهم أيضًا ..

ولكنها لم تنجح أبدًا ..

شىء ما فى أعماقها كان يهوى فى محيط من الملل ، بعد دقائق معدودة من حديثهم معها ..

شىء ما فى عقلها ، كان يرفض الخوض فى أحاديث تافهة أو فارغة ، أو قضاء الوقت فى مراجعة ما فعله الآخرون ، وانتقاد كل تصرفاتهم ومشاعرهم ..

وشىء أكبر ، فى كيانها كله ، كان يأبى الارتباط ..

مجرد الارتباط !!

ولقد حاولت أكثر من صديقة إقناعها بالارتباط بشاب ما ، بحجة أن هذا يضاعف من ثقتها بنفسـها ، ويمنحها نوعًا من الأمان النفسى والعاطفى ..

بل إن معظمهن حاولن دفع صديق أو آخر فى طريقها ..

ولكن علاقاتها لم تنجح أبدًا ..

إما أن ترفض هى الشاب ، لأنه أنانى أو تافه ، أو يرفضهـا هو بحجة أنها باردة عاطفيًا ، أو جافة أكثر مما ينبغى ..

كلهم تقريبًا حاولوا تجاوز الحدود معها ..

بل كان كل هدفهم ، منذ البداية ، هو تجاوز تلك الحدود ..

وكان هذا يحنقها دائمًا ..

يحنقها ويغضبها ويثير اشمئزازها إلى أقصى حد ..

وغضبها كان يبعدهم دائمًا ، ويدفعهم إلى ترديد الكثير من الأكاذيب والأقاويل عنها ، حتى لقد اتهمها أحدهم بأنها سادية ، ووصفها بلوح الثلج الخشن ..

ولقد آلمها ذلك الوصف للغاية ، وجعلها تبكى طوال ليلة كاملةً ، خاصةً وأنها تعلم أنه ليس من السهل أبدًا أن ينسى الآخرون هذا ...

سيُرددون وصفه مرات ومرات دون مراعاةً لمشاعرها وآلامها ..

وهذا ما حدث بالفعل ..

أصبحت السخرية منها سمة عامة فى الكلية كلها ، حتى آخر يوم فيها ..

ولم ينته كل هذا إلا مع تخرُجها ، وعملها كمترجمة فى شركةً كبيرةً للسياحة ..

ومع انهماكها فى عملها هذا .. نسيت كل شىء عن الكلية وسخافاتها ..

وعن الارتباطات ..

حتى ظهر (هانى) ..

و(هانى) هذا أحد زملاء عملها ، وهو شاب وسيم ، طويل ، أنيق باستمرار ، له ابتسامة عذبة ، لا تُفارق شفتيه

قط ، وعينان زرقاوان ، تشعر وكأنك تغرق فيهما إلى أعمق الأعماق ، إذا ما تركزتا على وجهك ..

ولقد فعلها معها ثلاث مرات ، فى يوم واحد ..

أوّل يوم تسلم فيه عمله معها ..

فى كل مرة كانت ترفع فيها رأسها إليه ، تجده يتطلّع إليها بعينيه الزرقاوين ..

وفى المرة الثالثة ، وجدته أمامها مباشرة ، والتقت عيناها بعينيه لدقيقة كاملة ، لم ينبس أحدهما خلالها ببنت شفة ..

ودون أن تدرى كيف حدث هذا ، وجدت نفسها جالسة معه ، فى كازينو صغير ، يطلّ على نيل (القاهرة) مباشرة ..

يومها تحدّث كثيرًا وطويلاً ، دون أن يُحاول حتى لمس أصابعها ..

ولأن قواعدها دائمًا صارمة حاسمة حازمة ، فقد تصوّرت أن هذا دليل على أنه شاب جاد ومحترم ..

لم [illegible] قلبها له فى عنف ، أو تتراقص مشاعرها طربًا من أجله ، كما كانت تصف صديقاتها ، ولكنها راحت تفكر

جديًا فى الموعد المناسب ، الـذى يمكن أن يـأتى ليخطبها فيه من والدها ..

وكأى بنت ، لم تُفصح عن رغبتها هذه أبدًا ، ولكنها ، فـى الوقت ذاته ، راحت تنتظر موعد لقائهما بلهفـة واهتمـام ، لتسمع من بين شفتيه كلمـاته الدافئـة ، وعباراته الأنيقـة ، التى تصف جمالها ورقتها وحُسنها ..

باختصار .. لقد أدمنت مداعباته لروح الأنثى فى أعماقها ..

وفى عملها ، لاحظ الكل هذا ، وأدركوا أنهـا توليـه كـل اهتمامها ، على الرغم من أنهـا تُعتبر مـن الناحية الوظيفية ، رئيسته المباشرة فى العمل ..

ولكنها لم تبال أبدًا بهذا ..

كانت ثقتها بنفسها تدفعها لتجاهل تعليقات ونصائح الكل ، ما دامت مقتنعة بما تفعله ..

ثم جاءت الصدمة بغتة ..

وبلا مقدمات ..

فمنذ بدأ ارتباطها بـ (هانى) ، كانا يتبادلان الرسائل ، عبر شبكة الإنترنت ، فى كل يوم ، تصحـبها موسيقى عذبـة ، على شاشة الكمبيوتر ..

وكانت هذه أجمل الرسائل التى تصلها عبر الإنترنت ..

وأسعد لحظات حياتها ..

ولكن يبدو أن اللّه (سبحانه وتعالى) لم يشأ تركها طويلاً ، فى جحيم الغش والخداع هذا ، فأعمى عينى (هانى) وقلبه ، وجعله يُرسل إليها رسالة ، كان ينبغى أن يُرسلها إلى أخرى ..

أخرى تُدعى (نهى) ..

فى البداية ، خُيِّل إليها أنه قد أخطأ كتابة اسمها فحسب ..

ثم قرأت الرسالة ..

وتمزّق قلبها بمنتهى العنف .

كل حرف من حروف الرسالة تحوّل إلى خنجر حاد ماض ، انغرس فى مشاعرها بلا رحمة أو هوادة ..

ففى رسالته ، كان يبث (نهى) هذه حبه وغرامه ، بنفس الكلمات والعبارت ، التى يُرسلها إليها هى ، ثم يُضيف إلى كل هذا عبارات ساخرة لاذعة ، عن رئيسته المباشرة فى العمل ، وكيف أنه يتظاهر بحبها وغرامها ، حتى يحصل منها على كل الامتيازات والاستثناءات الممكنة ، ويضمن الترقى فى العمل بسرعة أكبر ..

وكانت هذه أجمل الرسائل التى تصلها عبر الإنترنت .. وأسعد لحظات حياتها ..

ولم يمكنها قراءة باقى الرسالة ، مع فيض الدموع ، الذى انهمر أنهارًا من عينيها ..

لقد ذكر اسمها صراحة ، وأضاف إليه الوصف ذاته ، الذى كانوا يستخدمونه فى الكلية ..

لوح الثلج الخشن ..

كان يعرفه منذ البداية ..

ويسخر منها طوال الوقت ..

كم بكت ليلتها !!

كم انهمر من دموعها وكرامتها وأحزانها !!

إنها لم تتصورّ حتى أنها تمتلك كل هذا القدر من الدموع ..

وعندما أشرقت الشمس ، كانت قد اتّخذت قرارها بألاّ تبكى ثانية أبدًا ، من أجل رجل ..

أيًا كان ..

وعندما التقت به فى الشركة ، كان هادئًا مبتسمًا ، على نحو يوحى بأنه لم يُدرك هفوته بعد ..

أو لم يتصورّ حدوثها ..

وبحنان زائف سخيف ، سألها عن سر تورُّم جفنيها واحمرار عينيها ، و ....

وثارت فى وجهه بكل غضبها وعنفها وسخطها ..

انفجرت تشرح له ما فعله ، وتصف له خسته ونذالته وضاعته ..

فى البداية صدمه الموقف ، واحمرّ وجهه بشدة ، ثم لم يلبث أن تحوّل بغتة إلى قط شرس ، وراح يُهاجمها بعنف لامثيل له ، ويُردد تلك الوصف البغيض أمام الكل ..

والعجيب أنها ، وهى الضحية ، لم تحتمل هجومه المضاد هذا ..

وانهارت ..

والأعجب أنها قد تقدّمت باستقالتها ، فى اليوم نفسه ، وغادرت الشركة لآخر مرة ..

كانت تشعر بأنها قد فقدت كل شىء فى الدنيا ، وهى تعود إلى منزلها ..

ولكنها لم تبك ..

لم تذرف دمعة واحدة ، علـى ذلـك الـذى طعن كـل مشاعرها ..

أو حتى على العمل الذى تركته ..

ولأسبوعين كاملين ،رفضت كل محاولات صاحب الشركة ، لإعادتها إلى منصبها ..

كانت ترفض تمامًا العودة إلى نفس المكان ..

حتى بعد أن قاموا بفصل (هانى) ..

لم تعد تحتمل العودة إلى نفس المكان ، الذى تردد فيه ذلك الوصف البغيض ، على مسامع الكل ..

إنها واثقة من أن أحدًا لن يُردّده على مسامعها قط ..

ولكنهم سيتهامسون به فيما بينهم ..

وسيسخرون منه ..

ومنها ..

ولن يمكنها أبدًا أن تحتمل هذا ..

وبعد ثلاثة أسابيع كاملة ، عادت تتصل بشبكة الإنترنت ، التى قاطعتها طوال الوقت ..

ووجدت رسالته ..

أو بمعنى أدق .. رسائله ..

رسائل (نادر) ..

كان من الواضح أنه قد أرسل أولى رسائله فى نفس الليلة ، التى غادرت فيها عملها ..

وكانت رسالة رقيقة قصيرة ..

رسالة يواسيها فيها بكلمات تحمل كل رقة وعذوبة الدنيا ، وعبارات تفيض بحنان جارف عجيب ، لم تتصورّ أن تشعر به أبدًا ، من كلمات مكتوبة على شاشة إليكترونية باردة ..

وفى رسالته الثانية ، كان يُخبرها أنه لاينتظر ردًا على رسائله ، ولكنه شعر برغبة قوية فى إرسالها ، ولايتمنى سوى أن تقرأها مرة واحدة ، ثم تمحوها بعد هذا تمامًا ..

ولقد حاولت محوها بالفعل ..

ولكنها لم تستطع ..

شىء ما فى أعماقها منعها من هذا ، وجعلها تُطالع باقى الرسائل ..

كان يتحدّث طوال الوقت عنها ، وعن رقتها ، ودفء قلبها ، وروعة مشاعرها ، ويُحاول إقناعها بأن ما حدث لايسيء إليها قط ، فهي قد أحبّت ، ومنحت ، والطرف الآخر هو الذي أهان ذلك الحب ورفضه ..

ولسبب ما ، راحت تقرأ رسائله كلها مرات ومرات ..

وشعرت بالفعل بهدوء نفس كبير ، وهي تُطالع كلماته ..

منطقه الهادئ والبسيط مسّ شغاف قلبها ، ووجد سبيله إلى كيانها ، وداعب روح الأمل ، التي كانت تُدفن في أعماقها ..

لم تكن تعرف عنه سوى اسمه وعنوان بريده الإليكتروني ، الذي نقلته الشبكة تلقائيًا ..

وعلى الرغم من أنها قد بذلت جهدًا كبيرًا لتجاهل الأمر ، وجدت نفسها تُفكّر فيه ، وتتساءل عن شخصيته ، وماهيته ، وكيف توصّل إلى معرفة كل هذا عنها ..

ولبعض الوقت ، راودها خاطر مخيف ..

أمن الممكن أن يكون هو نفسه (هاني) ، الذي يُحاول الانتقام والسخرية منها مرة أخرى ؟!

أفزعها الخاطر بشدة ، وأثار الكثير من توترها وعصبيتها ، حتى إنها قامت إلى جهاز الكمبيوتر ، وأرسلت إليه أول رسالة ..

رسالة أخبرته فيها بما تخشاه ، بكل الصراحة والوضوح ..

وجاءت إجابته فى سرعة ..

وهلع ..

جاءت ليُخبرها فيها أن مخاوفها لا أساس لها من الصحة وأنه لايمكن أن يفكر مُجرد تفكير فى إيذاء مشاعرها ، ولو بهمسة واحدة ، ثم صارحها بأن شقيقه زميل قديم لـ (هانى) ، وبأنه هو نفسه كان أحد زملائها فى الكلية ..

ولقد أفزعتها زمالته القديمة هذه فى البداية ..

ولكن كلماته كانت توحى بالصدق والإخلاص ، حتى إنها تصوّرت أن الكمبيوتر نفسه قد شعر بها وأحسها .

ولقد أرسلت إليه تعتذر عن شكوكها ، وأجابها هو بأن تلك الشكوك كانت أفضل ما حدث له ، فى حياته كلها ، لأنها دفعتها للكتابة إليه على الأقل ..

ومن هنا ، راحا يتبادلان الرسائل ..

ومع الوقت ، حصلت هى على عمل أفضل ، وتوطدت صلتها به أكثر ، عبر شبكة الإنترنت ، وراحا يتبادلان المعلومـات والأفكار ..

وحتى الأحلام والأمنيات ..

ورويدًا رويدًا ، وجدت نفسها شديدة الاهتمام برسائله ، وشديدة اللهفة لقراءتها كل يوم ..

وكثيرًا ما حاولت أن تتذكَّره ، وسط شباب الكلية ..

ولكنها عجزت تمامًا ..

حتى عندما استعانت بصور الحفلات والرحلات ..

كان بالنسبة إليها شخصًا مجهولاً ، تعرف اسمه ..

فقط اسمه ..

ولكنه أفضل شخص عرفته ، فى حياتها كلها ..

شخص رقيق ، دافئ حنون ، مُثقف ، وصريح ..

كل السمات ، التى عاشت تحلم بها منذ الأزل ، فى فارس أحلامها ..

ويوما بعد يوم ، راح (نادر) يتسلَّل إلى أعماقها ، ويغوص فى كيانها ، ويحفر سردابًا عميقًا فى قلبها ..

وذات ليلة ، وهى تنتظر رسالته بلهفة ، وجدت نفسها تعترف بأنها تُحبه ..

تُحبه بكل جوارحها ..

ويا له من حب !

عبر شبكة الإنترنت ..

وبمبادرة منها ، أرسلت إليه صورتها عبر الإنترنت ..

ثم طلبت منه أن يُرسل صورته ..

ولكنه لم يفعل ..

لقد تجاهل الأمر تمامًا على الرغم من أنها قد كرَّرته مرتين ..

ثم بدأت كلماته وعباراته تكتسى بحزن عجيب ..

حزن لم يُفصح عنه قط ، ولكنه أفصح عن نفسه بكل وضوح ، فى كل حرف أرسله إليها ، حتى إنها سألته عنه ..

ولقد أدهشه سؤالها بالفعل ..

أدهشه ، حتى إنه قد أرسل إليها واحدة من أرق رسائله ، يصفها فيه بذات القلب الدافئ ، ويؤكِد لها أن رقتها وحنانها وحدهما أدركا الحزن فى عباراته ..

ولكنه لم يُفصح عن سر ذلك الحزن ..

أبدًا ..

ثم وصلتها منه رسالة عجيبة ..

رسالة رقيقة إلى درجة لم تعهدها ، في حياتها كلها ..

رسالةً تحدَّث فيها ، وكأنه يتحدَّث لآخر مرة ..

رسالةً جعلتها تبكى .. وتبكى .. وتبكى ..

وتحطَّمت القاعدة ..

ها هي ذي تبكى مرةً أخرى ..

من أجل رجل ..

صحيح أنه لم يقل شيئًا محزنًا فى رسالته ، ولكن قلبها قرأ ما لم يكتبه ..

وشعر بما لم يُفصح عنه ..

وبكل دموعها ولهفتها ولوعتها ، أرسلت ترجوه أن يُفصح عمّا يعانيه ..

ولكنها لم تتلقَ جوابًا ..

لا فى اليوم الأول ، أو الثانى ، أو حتى العاشر ..

وفى كل يوم ، كانت تبكى ..

وتبكى ..

وتبكى ..

وفى كل ساعة كانت تنتظر رسائله ..

وتنتظر ..

وتنتظر ..

أسبوعان كاملان ، تورمت فيهما عيناها ، وانفطر خلالهما قلبها ، وهى تخشى ألا ترى رسائله مرة أخرى ..

حتى جاءت تلك الرسالة ..

كانت على عكس رسالته الأخيرة ، مفعمة بالأمل والحياة ، على الرغم من سطورها القليلة ، التي قرأتها مرات .. ومرات .. ومرات ..

كان يعتذر عن تأخره في الإرسال ، ثم يعد بإرسال رسالة أخرى في المساء ..

يومها امتلأت نفسها سعادة لم تحس بمثلها قط طوال عمرها ..

سعادة شملت كل ذرة في كيانها ، وجعلتها أشبه بالبدر المنير ، حتى إن كل العاملين في الشركة الجديدة قد شعروا بهذا ، وأعربوا عن سعادتهم به ، على نحو جعلها أكثر مرحًا وسعادة ، و ...

وحبًا ..

وفي المساء ، كانت تنتظر الرسالة بكل حب وحنان ولهفة الدنيا ..

ومع دقات العاشرة والنصف وصلت الرسالة ..

وكانت تحمل أكثر من مفاجأة ..

لقد اعترف لها (نادر) بأنه يُحبها ، منذ كانا زميلين في الكلية ، إلا أنه لم يجرؤ قط على التحدُّث إليها ، أو محاولة الاقتراب منها ..

ثم اعترف بأن ملامحه ليست جميلة أبدًا ..

بل ربّما كانت أقرب إلى القُبح ..

وهذا ما منعه من إرسال صورته إليها ..

كان يخشى أن يفقدها لو فعل ..

وهو لن يحتمل هذا أبدًا ..

أما المفاجأة الأخيرة ، فهي أنه كان في الولايات المتّحدة الأمريكية ، يُجرى عملية جراحية بالغة الدقة والخطورة ..

وهذا سر حزن رسائله الأخيرة ..

وسر انقطاعها أيضًا ..

ولكن العملية نجحت ، وتجاوز هو مرحلة الخطر ..

وجرؤ على مصارحتها بكل مشاعره ..

وفي نهاية الخطاب ، أخبرها أنه سيعود على طائرة (مصر للطيران) ، التي تصل مساء الغد ..

ليلتها أيضًا بكت (هبة) ، كما لم تبك من قبل ..

ولكن دموعها هذه المرة كانت تختلف ..

تختلف كثيرًا ..

فقد كانت تحمل العديد من المشاعر المتناقضة ...

بل كل مشاعر الدنيا ..

ولكنها كعادتها ، كانت قد حسمت أمرها ، واتخذت قرارها ، عندما أشرقت الشمس ..

وفى مساء اليوم التالى ، كانت تقف فى مطار (القاهرة) ، مرتدية أجمل أثوابها ، وحاملة باقة من الزهور ، لتستقبل (نادر) ..

ربمًا كان قبيحًا بالفعل ، فى مظهره الخارجى ، كما وصف نفسه ..

ولكنه سيظل فى نظرها أجمل رجل فى الدنيا كلها ..

ليس لأنه أرق وأعذب وأصدق وأروع إنسان عرفته فى حياتها كلها فحسب ..

ولكن لأنه أيضًا حبيبها ..

حبيب عمرها .. الوحيد ..

* * *

سنة واحدة

[قصة قصيرة]

ترقرقت الدموع فى عينى (غادة) ، وارتجفت تلك الابتسامة الحانية الدافئة على شفتيها ، وهى تثبت تلك الصورة الكبيرة ، فى منتصف أفضل جدار فى المنزل كله ، ثم تتراجع لتلقى عليها نظرة طويلة ، قبل أن تنطلق من أعماق صدرها آهة حارة ، وهى تتمتم :

ـ حمداً لله ..

كانت الصورة تضمّ (وائل) و(ولاء) ، ابنى زوجها (خالد) ، فى حفل تخرّجهما فى الجامعة الأمريكية ، والفرحة تغمر كل لمحة من ملامحهما بلا استثناء .

وانسابت دموعها على خديها ، وهى تستعيد ذكريات بعيدة ..

كم تمنى (خالد) أن يرى هذا اليوم ..

كم حلم بمشاهدة توءميه ، وهما يحصلان على شهادة التخرُّج ، بعد أن أصبحا شابين يافعين جميلين ..

كم فعل ..

وارتجفت شفتاها مرة أخرى مع تذكُّرها لتلك اللحظة الحزينة من حياته ..

اللحظة التى علم فيها أن تحقيق حلمه مستحيل !

وأنه لن يحيا ليرى ذلك اليوم ..

أبدًا ..

كان هذا منذ عشرين عامًا تقريبًا ، قبل أن يبلغ التوءمان عامهما الأوَّل بشهر واحد ، عندما شعر (خالد) ببعض الألم فى جانبه الأيمن ، فذهب لزيارة الطبيب ، مع زوجته (سهام) ، التى أبدت اهتمامًا وقلقًا شديدين بالأمر ، على الرغم من سخريته من مخاوفها وقلقها ..

ولكن الطبيب شاركها القلق نفسه ، بعد أن قام بالكشف عليه ، بمنتهى الاهتمام والدقة ، ثم قال :

ـ أظننا بحاجة إلى بعض الفحوصات وصور الأشعة .

لم يبال (خالد) يومها كثيرًا ، على الرغم من دموع (سهام) وجزعها ، وقضى ليلته يداعب طفليه ، اللذين لم يحبَّ فى عمره كله أكثر منهما ، ونام وهو يحتضنهما معًا ، وكأنما يبثهما حبه ودفأه وحنانه ، ويحلم بمستقبلهما ونجاحهما ..

وفى اليوم التالى ، وتحت إلحاح (سهام) ، ذهب (خالد) لعمل الفحوصات المطلوبة ..

وجاءت النتائج مفاجئة ..

ومفزعة ..

ورم خبيث فى الكبد ..

وهوى قلب (خالد) بين قدميه ، وهو يحمل الأوراق كلها إلى الطبيب ، الذى راجعها فى أسف وأكَّد تشخيص وتقرير المعامل ، وربَّت على كتفه ، قائلاً فى حزن :

ـ إنها إرادة الله (سبحانه وتعالى) يا ولدى .

غمغم (خالد) ، ذاهلاً منهارًا :

ـ وماذا عن طفلىَّ ؟! من سيربيهما ويرعاهما من بعدى ؟!

ربَّت الطبيب على كتفه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ الله يرعاهما دومًا يا ولدى .. ثم إن أمهما ما زالت شابة .. أليس كذلك ؟!

سأله (خالد) بصوت مرتجف :

ـ كم بقى لى من العمر ؟!

أشاح الطبيب بوجهه ، مغمغمًا :

ـ الأعمار بيد الله يا ولدى .

كرّر (خالد) فى عصبية :

ـ كم يا دكتور ؟!

صمت الطبيب بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ سنة واحدة على الأكثر .

غادر (خالد) المكان بعينين زائغتين ، وقلب تبكى خفقاته بدموع من دم ، ورأس لا يحمل سوى كلمة واحدة ، تنفطر لها كل القلوب ..

الطفلان ..

ما مصيرهما من بعده ؟!

لم يستطع العودة إلى منزله مباشرة ، خشية أن تقرأ (سـهام) النتائج فى ملامحه وشحوبه ، فقضى ثلاث ساعات فى مكان هادئ ، يرتب فيه أفكاره ، ويستعيد إيمانه بالله (سبحانه وتعالى) ..

أمامه سنة واحدة ..

هكذا قرّر الطب والعلم ..

ولكن من أدراه أنه كان سيحيا لحظة واحدة بعد هذا ، لو لم يصب بالمرض ؟!

الأعمار بيد الله (سبحانه وتعالى) وحده ..

هو يمنحها لنا ، وهو (سبحانه) يحدّد متى ينتزعها منا ..

كل شخص فى الوجود يمكن أن يموت الآن ..

فى لحظة واحدة ..

ودون أية أمراض أو متاعب ..

بل كل مخلوق ..

فلماذا يقلق نفسه بالأمر إذن ؟!

فليعش حياته ، ويرى طفليه ، ويمنحهما كل حبه ورعايته وحنانه ..

حتى تحين اللحظة ..

هذا ما ينبغى أن يفعله ..

وما ينبغى أن يحتفظ به سرًا فى أعماقه ..

وعندما عاد إلى منزله ، كان باسمًا ، هاشًا ، وكأنما نسى كل شىء عن مصيره المرتقب ، حتى إنه استطاع بسهولة إقناع (سهام) بأن الفحوصات قد أثبتت أن كل شىء على ما يرام ، وأن ما يعانيه لم يكن سوى بعض الإجهاد فحسب .

وعادت الدنيا تسير فى إطارها الطبيعى ، مع استثناء واحد ..

لقد زاد تعلُّق (خالد) بطفليه ، وراح يمنحهما المزيد والمزيد من الحب والدفء والحنان ، كما زاد اهتمامه بزوجته (سهام) ، وأخذ ينقل كل مدخراته باسمها ، و ..

ولكن فجأة ، سدّد إليه القدر ضربة عنيفة ..

ماتت (سهام) ..

ماتت فجأة ، بأزمة قلبية ، باغتتها بعد يوم عمل شاق ، على الرغم من أنها لم تشك أبدًا من أية متاعب صحية من قبل ..

وجنّ جنون (خالد) ..

لقد احتمل طوال الوقت فكرة موته ، معتمدًا على أنه سيترك طفليه لأمهما ، التى ستحسن حتمًا رعايتهما وتربيتهما ، وستمنحهما كل الحب والحنان ..

وها هى ذى زوجته ترحل قبله ..

وبسبعة أشهر كاملة ..

الكل تصوَّر أن ذلك الحزن الشديد ، الذى سيطر على كيانه كله ، يعود إلى فقده لزوجته ، التى ارتبط بها فى ريعان شبابهما ، بعد قصة حب طويلة ..

وكانوا على حق فى هذا إلى حد كبير ؛ فكل حبه لزوجته قد تحوَّل إلى موجة من الحزن العارم ..

ولكن خوفه على طفليه ، وهلعه من مصيرهما المنتظر ، بعد فقدان أبويهما ، كان يحوِّل هذا الحزن إلى بركان من الألم والمرارة ، تتدفَّق حممه فى كل ذرة من كيانه ..

ماذا سيفعل الطفلان الآن ؟!

كيف سيواجهان الدنيا ، دون أبوين ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

المأساة الحقيقية هى أنه و (سهام) كانا كفرعى شجرة مقطوعين ، كما تقول الأمثال العامية ..

هو وهى فقدا أبويهما فى طفولتهما ، وعاشا يتيمين طيلة عمرهما ..

وكلاهما عانى الكثير فى طفولته وشبابه ..

وها هما ذان ولداه يعانيان المأساة نفسها ، التى تمنى من أعمق أعماق قلبه ألاّ يرياها أبدًا ..

وهو مستعد لفعل أى شىء فى الدنيا ، حتى لا يحدث هذا ..

أى شىء ..

ولكن عقله ظلّ عاجزًا عن التفكير فى أى حل منطقى ..

حتى ظهرت (غادة) فى حياته ..

جارة شابة لهما ، لم يكن يشعر بوجودها من قبل قط ، ولكنها بدأت تظهر فى حياته بوضوح ، منذ وفاة (سهام) لترعى الصغيرين فى غيابه ، وتطعمهما ، أو تحملهما إلى

حضانة الأطفال المجاورة ، وتعيدهما فى نهاية اليوم إليه ، نظيفين باسمين ، عند عودته من عمله ..

ولدهشته ، كانت (غادة) تعامل الطفلين بحب جارف ، وتغمرهما بحنان لم ير مثله قط ، حتى من زوجته (سهام) ، أمهما الحقيقية ..

ولم يستطع هو فهم هذا أبدًا ..

حتى عرف قصة (غادة) ..

لقد تزوّجت مرة واحدة ، منذ عامين ، وتم طلاقها بعد عام واحد ، لأنها ليست لديها القدرة على الإنجاب مطلقًا ..

لهذا هى شديدة التعلُّق بالطفلين ، اللذين يمنحانها شعورًا بالأمومة ، لن يمكنها الحصول عليه على نحو طبيعى أبدًا ..

وهنا قفزت الفكرة إلى رأسه ..

وفى اليوم التالى ، وبعد مرور شهرين فحسب على موت (سهام) ، تقدّم يطلب يد (غادة) للزواج ..

ولقد أدهش هذا (غادة) بشدة ..

بل أدهش الكل ..

وأفزعهم ..

كيف يمكن أن يفكّر فى الزواج بهذه السرعة ؟!

هل نسى زوجته ، وحبهما الجارف ، الذى تحدّث عنه الكل ؟!

أم أنه يبحث عمن يرعى طفليه فحسب ؟!

ولكن (خالد) لم يبال قط بما قاله الكل ..

كل ما فعله ، هو أن صارح (غادة) بالموقف كله ..

وبكل التفاصيل ..

صارحها بأمر مرضـه ، وأيام عمـره المعدودة ، واحتياجه الشديد إلى وجودها ، من أجل طفليه ..

ومن أجله أيضًا ..

وكانت المفاجأة في انتظاره ..

لقد بكت (غادة) بكـاءً حارًا على صدره ، وهي تصارحه بدورها بأنها تحبه ، من أعمق أعمـاق قلبهـا ، وبأنها كـانت تخفي ذلك الحب في قلبها طيلـة الوقت ، حرصًا على بيتـه وزواجه وحياته وطفليه ..

وبكل حبها ، أخبرته (غادة) أنها توافق على الزواج منه ، حتى ولو اقتصرت مدة زواجهما على أسبوع واحد ، وأن كل ما تتمناه هـو أن يمكنهـا إسعاده بأقصى مـا تستطيع ، ومنحه وطفليه كل حبها وحنانها ودفئها ..

بل كل ما بكيانها ..

وبسرعة أثارت دهشة واستنكار الكل ، تزوّجا ..

وكانت (غادة) صادقة فى كل ما وعدته به ..

لقد منحته ومنحت طفليه كل حنانها ، وحبها ، ودفء قلبها الكبير ..

ولم يكن (خالد) منافقًا أو مبالغًا ، عندما قال : إنه قد قضى معها أجمل وأسعد أيام حياته ..

هذا ما تذكَّرته (غادة) ، وهى تتطلَّع إلى صورة حفل تخرُّج (وائل) و (ولاء) ، ودموعها ما زالت تغرق وجهها ، وهى تغمغم :

ـ أخيرًا تحقق حلمك ، وتخرَّجا يا (خالد) .

احتضنها (خالد) بكل حب الدنيا ، وطبع قبلة على خدها ، وهو يقول :

ـ من يصدِّق أننى عشت لأرى هذا اليوم ؟!

أراحت رأسها على صدره فى حب ، مغمغمة :

ـ أطال الله فى عمرك ، يا أحب الناس .

ابتسم ، وهو يضمُّها إليه فى دفء ، قائلاً :

ـ الأعمار بيد الله يا حبيبتى .. منذ عشرين عامًا ، تصوَّر الطب أننى لن أحيا سوى عام واحد ، ولكن إرادة الله (سبحانه وتعالى) ،

والحب الذى غمرت كيانى به ، حققا المعجزة ، وهأنذا حى أرزق ، بعد أن مات كل الأطباء ، الذين قرّروا ما تبقى لى من العمر يومًا .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية محبة ، وهو يضمها إلى صدره أكثر وأكثر ، ويتطلّع إلى صورة حفل تخرُّج ولديه ، مغمغمًا :

ـ لقد كانت معجزة حقيقية ، بكل المقاييس .

دفنت رأسها فى صدره أكثر ، وتركت دموعها تنساب عليه ، بكل فرحة وحب وسعادة الدنيا ، وهى تشاركه فى صمت إيمانه بتلك المعجزة ..

معجزة الحب .

* * *

قطرة حب
(قصة قصيرة)

« سن الثلاثين يقترب .. »

قفز هذا الخاطر المفزع إلى رأس (سلوى) ، وهى تصفف شعرها بعناية فائقة كعادتها ، أمام المرآة الكبيرة فى حجرتها ، فى ذلك الصباح المشمس الجميل ..

وفى قلق ليس له ما يبرره ، مالت تلقى نظرة فاحصة على ملامحها ..

مازالت فاتنة ساحرة كما هى ..

لا تجـاعيد أو جلـدًا داكنـًا ، فـى أى مكـان مـن بشـرتها ، وبخاصة منطقة ما تحت العينين ..

كل صديقاتها يحسدنها فى غيرة ، على حسنها وجمالها ، وشعرها الكستنائى الناعم ، وعينيها العسليتين الناعستين ..

كلهن يجمعن على أنها أكثرهن سحرًا وجاذبية وأناقة ..

ولكن العجيب أنها وحدها لم تتزوّج بعد ..

جميعهن تزوجن وأنجبن ، قبل أن يبلغن الثامنة والعشرين من العمر ..

أما هى ، جميلة الجميلات ، وساحرة البنات ، ودرة الشلة ، فما زالت كما هى ..

عذراء لم تتزوّج ..

ولم ترتبط حتى بعلاقة حب قوية ..

كثيرون وقعوا فى غرام أناقتها ، وهوى جمالها ، وسحر فتنتها ..

ولكن قلبها لم يقع فى حب أحدهم قط ..

لم تشعر أبدًا بالحب ..

أو حتى بقطرة منه ..

قطرة حب ..

ولهذا رفضت عشرات العرسان ..

هذا لأنه بدين ..

وذاك لأنه قصير ..

وآخر نحيل ..

ورابع بخيل ..

ويوم بعد يوم ، تناقص عدد المتقدمين ..

وتزايدت سنوات عمرها ..

ثم فجأة ، وجدت نفسها وحدها ..

حضرت أكثر من عشر حفلات زفاف لبنات الشلة ..

وحضرت (سبوع) المواليد أيضًا ..

وفى كل مرة كانت تفتن الكل ..

وتوقع قلبًا جديدًا ..

أو عدة قلوب ..

إلا قلبها هى ..

فبالنسبة إليه دائمًا ، كانت النتيجة : لم ينجح أحد ..

ثم فجأة ، ومن عامين كاملين ، تحوّلت العبارة إلى مضمـون آخر ..

لم يتقدّم أحد ..

والعجيب أنها لم تنتبه إلى هذا فى البداية ..

ولكن أمها فعلت ..

أمها لاحظت أن أحدًا لم يعد يتقدّم لطلب يد ابنتها الجميلة ، وأبدت قلقها الشديد من هذا ..

ولكنها لم تبال - حينذاك - أو تهتم ..

فما زالت جميلة ، أنيقة ، وكل صديقاتها ، وحتى أزواجهن يعلنون هذا صراحة ..

وكانت هذه هى البداية ..

أزواج صديقاتها ..

إعجابهم بها ، فى كل حفل أو مناسبة ، أثار غيرة صديقاتهـا وقلقهن ..

ورويدًا رويدًا ، رحن يخففن من ارتباطهن بهـا ، ويقللـن دعوتها أو زيارتها ..

ومع مرور الوقت ، انقطعت صلاتها بهن أو كادت ..

وبدأت تنتبه للأمر ..

لقد تجاوزت التاسعة والعشرين منذ خمسة أشهر ..

وها هى ذى فى طريقها إلى الثلاثين ..

ويا له من رقم مفزع !!

العشرينات ، فى أية مرحلة منها ، ما زالت تحمل رنة الشباب ، ورائحة النضارة ..

ولكن الثلاثينات ليست كذلك أبدًا ..

صحيح أن المرأة تبلغ فيها أوج أنوثتها ونضجها ..

ولكن ليس إذا ظلت عانسًا ، بلا زواج ..

فى هذه الحالة ، تصبح الثلاثينات مرحلة انكسار ، وانحسار ، وانخفاض الفرص إلى الحد الأدنى ..

لذا ، فلا بد أن تتزوّج بسرعة ..

وقبل فوات الأوان ..

ولكن كيف ؟!

لقد انقطع سبيل العرسان بغتة ، ولم تعد هناك فرصة واحدة ..

إلا بمصادفة بحتة ..

والعجيب أن هذه المصادفة قد حدثت .

كانت تعاون طفلة صغيرة على عبور الطريق ، وهى فى طريقها إلى النادى ، عندما وقع بصرها عليه ..

كان يقف هناك ، على الرصيف المقابل ، يحدق فيها بانبهار شديد ، وينقل بصره فى دهشة وإعجاب ، بينها وبين الطفلة الفقيرة ، ذات الثياب الرثة ، وكأنه يتساءل : كيف اجتمع هذا وذاك ؟!

كيف يتعلق الفقر بيد الحسن والجمال ، على هذا النحو ؟!

ولأوّل مرة فى حياتها ، وجدت نفسها تشعر بخجل شديد ، مع نظرات الانبهار والإعجاب فى عينيه ، ولم تكد تبلغ الرصيف الآخر ، حتى منحت الطفلة الصغيرة جنيهًا ، وأسرعت تدلف إلى النادى فى ارتباك ..

وحاولت أن تطرد كل هذا من ذهنها ..

ولكنها لم تنجح أبدًا ..

ولم تدر لماذا ؟!

إنه لا يشبه ، ولا يمكن أن يشبه فارس الأحلام ، الذى صنعته فى خيالها ، وعاشت معه أجمل أحلامها ..

إنه أصلع ، قصير ، أسمر البشرة ، يرتدى منظارًا طبيًّا سميكًا ، وقميصًا لا يتفق قط مع سرواله الواسع ..

ربما هى نظرة الانبهار فى عينيه ، والتى لم تلمح مثلها منذ ما يقرب من العام !

ربما !

المهم أنه هو أيضًا لم يمنحها الفرصة للنسيان ..

لقد فوجئت به داخل النادى ، يحدجها بنفس النظرة المبهورة المسحورة ..

وفى عصبية خجلى ، غمغمت :

- ما هذا بالضبط ؟!

سألتها قريبتها فى حيرة :

- ماذا حدث ؟!

أشارت بطرف خفى إليه ، قائلة :

- هذا الرجل هناك ، يرمقنى بنظراته منذ ساعة كاملة .

تطلعت قريبتها إلى الرجل ، قبل أن تهتف ، بكل دهشة الدنيا :

- الدكتور (إيهاب) .. مستحيل !

سألتها فى حدة :

- ما هو المستحيل ؟!

أجابت قريبتها مبهورة :

- الدكتور (إيهاب) هذا أستاذ جامعى ، فى كلية الهندسة ، وهو رجل وقور رصين للغاية ، و ...

صمتت لحظة ، ثم مالت نحوها ، وضحكت مضيفة :

- وأعزب .

تضرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

ـ وما شأنى أنا ؟!

ضحكت قريبتها مرة أخرى ، وقالت :

ـ من نظراته هذه ، والتى لم أره يرمى بها أنثى واحدة ، طوال الخمس سنوات الأخيرة ، أعتقد أنه شأنه هو .

ثم عادت تميل نحوها ، مستطردة فى خبث :

ـ وربما أصبح شأنك أيضًا .

تضرّج وجهها بحمرة الخجل والحياء ، وهى تغمغم فى أعماقها :

ـ ذلك الأصلع القصير ؟! مستحيل !

ولكن يبدو أن قريبتها كانت بعيدة النظر بالفعل ..

ففى اليوم التالى مباشرة ، تقدّم الدكتور (إيهاب) لطلب يدها ..

ولقد فاز بإعجاب واحترام والدها ووالدتها وشقيقها على نحو عجيب ، حتى إنهم جميعًا راحوا يمتدحونه بشدة ، ويحثونها على قبول مطلبه ، على الرغم من هيئته ، ومن الحلة السوداء ، التى ارتداها على حذاء بنى اللون ..

ولقد قضت ليلتها كلها تدير الأمر على كل الوجوه ..

إنه أستاذ جامعى ، وأحواله المالية والاجتماعية مناسبة تمامًا ..

صحيح أن دبلته ما زالت فى إصبعها ، ولكنها لا تحتمل الجلوس معه ، والتحدُث إليه ..

ولا تطيق دعاباته السمجة ، أو مجاملاته السخيفة ..

كل شىء فيه يخنقها ، ويثير توترها وسخطها ..

لن يصبح فارس أحلامها أبداً

أبدًا ..

والواقع أن الرجل كان مهذبًا حنونًا للغاية ..

وكان يبذل قصارى جهده لإسعادها ، وخطب ودها ..

ولكنها كانت تستقبل كل هذا بجفاء وبرود عجيبين ، وفى كل مناسبة تصرّ على تذكيره بأنها جميلة الجميلات ، وبأنه كان باستطاعتها الفوز بزوج أفضل منه بكثير ..

والعجيب أنه كان يحتمل ..

ويحتمل ..

ويحتمل ..

ومن جانبها ، كانت تفعل كل هذا بمنتهى الثقة ؛ لأنها تدرك تمامًا أنه لن يترك فرصة كهذه ، ولن يتخلى عن فاتنة مثلها ، مهما قالت أو فعلت ..

ثم إنها لم تعد تحتمل تعامل صديقاتها معها ، وكأنها لصة رجال ، تسعى دومًا لسرقة أزواجهن ، بجمالها وعذوبتها وأناقتها ..

لذا ، فقد قبلت الخطبة ..

وفى الحفل ، الذى أقيم بهذه المناسبة ، كانت تخشى أن يسخر الجميع منه ومن مظهره ، إلا أن أحدًا لم يفعل ، حتى أخبث زميلاتها ، وكأنهن جميعًا قد ارتحن لخطبتها ، حتى تنزاح منافستها عن كواهلهن ..

وبعد الخطبة مباشرة ، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ..

هل سيمكنها أن تحتمل الدكتور (إيهاب) هذا ؟!

هل يمكنها أن ترسم فى ذهنها صورتهما معًا ، فى حفل الزفاف ؟!

إنه ليس فارس أحلامها ، أو فارس أحلام أية فتاة فى الدنيا ..

هى بالذات كانت تستحق من هو أفضل ..

بكثير ..

ولقد راحت تردد هذا لنفسها طوال الوقت ، حتى لم تعد تطيق رؤيته ..

لهذا كانت الصدمة عنيفة ..

فذات ليلة ، كانا مدعوين لحضور حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها ، عندما حضر لاصطحابها ، مرتديًا حلة بنية اللون ، وحذاء أسود ، وجورب أبيض ، ورباط عنق أزرق ..

وهنا ، وجدت نفسها تنفجر فيه ، بكل غضبها وحنقها ، صائحة :

- ما هذا الذى ترتديه ؟! هل تريد أن تصبح أضحوكة الجميع ؟! هل تريدهم أن يسخروا منى ؛ لأننى تزوجت شخصًا لا يدرك حتى كيف يرتدى ثيابه ؟! هل تحب أن ..

فوجئت به يقاطعها فجأة بحدة :

- كفى يا (سلوى) .. كفى ..

حدقت فى وجهه بمنتهى الدهشة ، وكأنها لم تتصور أبدًا أنه قادر على الغضب والثورة ، فى حين تابع هو بنفس الحدة :

- لا تتحدثى معى أبدًا بهذا الأسلوب .. لقد احتملت عجرفتك ، وغرورك وزهوك بنفسك طويلاً على أمل أن تنضج مشاعرك ، وتهدأ انفعالاتك ، وتدركى أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل الزواج مودة ورحمة ، وليس صراعًا لإثبات الوجود وتأكيد الذات ..

كانت تشعر بارتباك شديد ، أمام ثورته المباغتة ، إلا أن عنادها وغرورها جعلاها تندفع قائلة :

ـ أنا أيضًا احتملت ذوقك الفاسد فى ..

قاطعها بحدة أكثر :

ـ مسألة الذوق هذه حجة سخيفة وتافهة ، فقد كان بإمكانك توجيه النصح لى ، أو اختيار ملابسى ، أو تعليمى الاهتمام بالمظهر ، وكنت سأستمع إليك جيدًا ، وأبذل قصارى جهدى لتنفيذ هذا ، على الرغم من اقتناعى الشديد بأن الجوهر أكثر أهمية من المظهر .. ولكن لا ضرر من جمع الحسنيين .. كنت سأفعل كل ما يمكن أن يرضيك ، لو ...

بتر عبارته بغتة ، وتطلع إليها بتأثر كبير ، قبل أن يضيف بصوت متهدج :

ـ لو أنك حملت لى فى قلبك قطرة حب واحدة .

واتسعت عيناه ، وهى تحدق فيه بدهشة ..

لماذا اختار هذا المصطلح بالذات ؟!

لماذا (قطرة حب) ؟!

إنها لم تنطقه أمامه قط !!

فمن أى مكان فى كيانها انتزعه ؟!

وبكل مرارة الدنيا ، تابع (إيهاب) :

ـ لو أن قلبك حمل قطرة واحدة من الحب تجاهى ، لأمكنك تجاوز كل هذا ، والنظر إلى أى شىء جيد فى حياتى ، أو شخصيتى ، أو تكوينى .. ولكن من الواضح أن هذه القطرة مفقودة ، حتى إننى أتساءل لماذا وافقت على خطبتى ، لو أنك تبغضيننى على هذا النحو ؟!

دفعها العناد إلى أن تقول فى حدة :

سل نفسك أولاً ، لماذا هرعت لخطبتى ؟! لقد بهرك جمالى وسحرى ، وخلبت لبك أناقتى و ...

قاطعها بدهشة كبيرة :

ـ جمالك وسحرك وأناقتك ؟! ما الذى جعلك تتصوَّرين هذا ؟!

هتفت :

ـ هل تنكر هذا ؟! هل تنكر أنك قد انبهرت بى .

أجابها بدهشة أكبر :

ـ لقد انبهرت بالفعل ، ولكن ليس بجمالك وسحرك وأناقتك .

هتفت بعصبية شديدة :

ـ كاذب .

ولكنه تابع فى مرارة :

- إننى أشاهد كل هذا فى النادى ، منذ عدة سنوات .. أشاهد الجمال والسحر والأناقة فى العديدات .. وفيك بالذات ، دون أن يثير هذا اهتمامى لحظة واحدة .

حاولت أن تبدو صلبة عنيدة ، ولكنها فوجئت بصوتها يتخاذل ، وهى تسأله :

- لماذا كنت مبهورًا إذن ؟!

هزّ رأسه ، وهو يجيب فى تأثُّر شديد :

- كنت مبهورًا بعطفك وحنانك ورقة مشاعرك ، عندما عاونت طفلة فقيرة رثة الثياب ، على عبور الطريق ، على الرغم من جمالك وأناقتك .. قليلات هنّ من يفعلن هذا .. قليلات هن من يتمتعن بقلب ناصع البياض ، وروح بسيطة كروحك ، على الرغم مما يدفعك إليه الشيطان أحيانًا ، من غرور وغطرسة ، لا تناسبان أعماقك الحقيقية ..

ولأوّل مرة فى حياتها ، وجدت قلبها ينتفض بين ضلوعها فى عنف ..

أحقًا ما يقول ؟!

أهذا ما بهره منها بالفعل ؟!

العطف والحنان ، ورقة المشاعر ؟!

« لن يمكننى الاستمرار يا (سلوى) .. »

حدّقت فى وجهه بذعر ، وهو يواصل :

- لن يمكننى المضى ، ما دمت قد فشلت فى زرع قطرة حب واحدة فى قلبك .. لن يمكننى إكمال طريق ، بدأ بحاجز هائل كهذا .

وبأصابع مرتجفة ، انتزع دبلتها من إصبعه ، ووضعها فى راحتها ، وهو يضغط يدها بحنان دافق ، قائلاً ، بصوت حمل حزنًا بلا حدود :

- أبلغي اعتذارى لوالدك ووالدتك وشقيقك .. أخبريهم أننى كنت شخصًا فظًا سيئًا ، ولم يمكنك الاستمرار معى .. أخبرى الجميع أيضًا أنك أنت فسخت خطبتنا ، حفاظًا على سمعتك ومظهرك ، ولكن احتفظى بالشبكة ، لأننى أنا المسئول عما حدث ، وسيظل هذا سرًا بيننا .. أقسم أن أحدًا لن يعلم به أبدًا ..

وتراقصت الكلمات على شفتيه ، مع الدمع الذى ترقرق فى عينيه ، وهو يتمتم :

- الوداع يا (سلوى) .. صدقينى .. لن أنساك أبدًا .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، ولم تتحرك من مكانها خطوة واحدة ، وهو يغادر المنزل فى صمت ، ويغلق الباب خلفه فى هدوء شديد ، وكأنما يخشى أن يزعجها بصوته ..

ولم تذهب إلى حفل عيد الميلاد ..

بل ولم تخبر أسرتها حتى بما حدث ..

لقد ظلت يدها مطبقة على دبلته طوال الوقت ، وكأنما تخشى أن تفتح أصابعها ، فتنفلت منها ، كما أفلت هو ..

ولأول مرة منذ عرفته ، راحت تستعيد كل أفعاله وتصرفاته معها ..

كل حبه ..

وحنانه ..

ودفئه ..

واحتماله ..

ودون أن تدرى ، وجدت دموعها تغرق عينيها ..

وشعرت بقلبها يخفق ..

ويرتجف ..

ويبكى ..

وفى أعماقه انسابت تلك القطرة ..

قطرة الحب ..

ودون أن تتردد لحظة واحدة ، وعلى الرغم من أن عقارب الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل ، طلبت رقم منزله ..

وما إن سمعت صوته ، حتى رقص قلبها بين ضلوعها ، وارتجفت الكلمات على شفتيها الجميلتين ، وهى تقول بكل حب ودفء وحنان الدنيا :

- (إيهاب) .. أنا آسفة ..

سمعته يهتف ، بكل دهشة وفرحة الدنيا :

- (سلوى) ؟!

انهمرت دموعها مرة أخرى ، وهى تقول بنفس الدفء والحب والحنان :

- تعال .. أنا أريدك .

هتف بصوت حمل قدرًا من السعادة ، يكفى العالم كله :

- افتحى الباب يا (سلوى) .. حتى لا أخترقه من فرط سرعتى.

أنهت المحادثة ، وقفزت إلى دولاب ملابسها ؛ لتنتقى أجمل أثوابها من أجله ..

من أجله وحده ..

وفي أعمق أعماق قلبها ، راحت تلك القطرة تتحوَّل إلى نهر متدفِّق ..

نهر من الحب ..

بلا حدود .

* * *

ورحلت ..

(قصة قصيرة)

فجأة ، قررت حبيبتى الرحيل ..

أو بمعنى أدق ، أعلنت عنه ..

فمنذ فترة ، وأنا أشعر بما يعتمل فى أعماقها ، وبما تشتعل به نفسها ..

صحيح أنها واظبت على لقاءاتنا ، ولحظات حبنا ، ولم تخلف موعدًا من مواعيدنا قط ..

ولكن كل هذا افتقر إلى حرارتها المعتادة ، ولهفتها المحبّبة ، وذلك الحب ، الذى كان يطلّ من عينيها وكلماتها ،

فيرقص له قلبى ، وينتعش به كيانى ، ويتجدَّد له شباب كل خلية فى جسدى ..

كل هذا اختفى ، منذ فترة ما ، قبل أن تعلن رغبتها فى الرحيل ..

حتى وهى تعلن هذا ، كانت جميلة ، رقيقة ناعمة ، حانية ، إلى حد انفطر معه قلبى ، وذاب له وجدانى ..

لقد تحمَّلت منى ومن أجلى طويلاً ..

وكثيرًا ..

تحمَّلت عصبيتى ، وتعنتى ، وثوراتى فى أثناء مناقشاتنا ، وإصرارى الدائم على رأيى ، ونوبات المرض التى تعاودنى باستمرار ..

تحمَّلت كل هذا بصبر ، دام عدة سنوات ..

لأنها أحبتنى ..

كان حبها عظيمًا ، رائعًا ، عميقًا ، على نحو لم أتخيَّل حتى وجوده ، منذ وعت عيناى الدنيا ..

وبكل ذرة فى كيانى ، أحببتها ..

بكل نبضة فى قلبى عشقتها ..

بكل نفس يردده صدرى أدمنتها ..

ولكننى لم أمنحها قط مثلما منحتنى ..

لم أمنحها الحب الكافى ، أو الدفء المطلق ، أو الشعور بالأمن والأمان ، الذى تنشده كل أنثى ..

لم أمنحها أبدًا عُشر ما منحتنى إياه ..

كانت تتمنى أن يربطنا إطار شرعى دائم ..

وكنت أعلم أنها ستصبح أعظم زوجة فى الوجود ..

أعظم حبيبة ، وعشيقة ، وأم ..

ولكن أسبابًا شتى حالت دون إتمام هذا ..

دون تحقيق حلمى وحلمها ..

ولقد بذلت قصارى جهدى ؛ للتغلُّب على كل العقبات ، وتجاوز كل المصاعب ..

ولم يسمح لى القدر بهذا ..

كنت أقاتل ، وأقاتل ، وأقاتل ..

والأمور تزداد صعوبة وتعقيدًا أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وصبرت حبيبتى على كل هذا ..

وصبرت ..

وصبرت ..

لم يكل حبها وحنانها وعشقها قط ..

لم تتوقَّف لحظةً عن منحي كل ما يمكنها ، حتى ترى نظرةَ سعادةً واحدةً في عينيَّ ..

ومن المؤكَّد أنها لم تجد صدى لكل هذا في نفسي ..

أو أنها قد تصوَّرت هذا ..

المهم أن حبها قد فتر فجأة ..

لعلَّها ملَّت ..

أو يئست ..

أو غضبت ..

المهم أنها لم تعد تحتمل الاستمرار ..

ولم تفصح عن هذا قط ، إلا عندما سألتها أنا ..

لحظتها بكت ، ودفنت رأسها في صدري ، وأعلنتني أنها لم تعد تستطيع الاستمرار ..

لم تعد قادرة على منحى حبها ، بنفس القدر السابق ..

لم يعد باستطاعتها أن تصبر ..

أو تحتمل ..

أو تنتظر ..

لم يعد باستطاعتها أن تحيا على هذا النحو ، الذى يخالف طبيعة كل أنثى ، تبحث عن الأمان ، والاستقرار ، فى كنف من تحب ..

وبقيت عيناى جافتين ، على الرغم من الدموع الغزيرة ، التى انهمرت فى قلبى ، وأنا استمع إليها ، وأتطلع إلى وجهها ، الذى عشقته بكل كيانى ، منذ أول لحظة وقع فيها بصرى عليه ..

وتركتها تفرغ كل ما لديها ، بكلماتها ، ودموعها ..

ولأول مرة فى حياتى ، شعرت بعجز ومرارة بلا حدود ..

فما منعنى من زواجها ما زال قائمًا ..

وحبها ما زال يحتلّ وجودى كله ..

كانت لحظات لا يمكن نسيانها قط ..

أكثر لحظات حياتي ألمًا ، وعذابًا ، ومرارة ..

فأنا لم أحبها فحسب ، وإنما عشقتها ، وذبت في هواها حتى النخاع ..

ولكنني لم أستطع أن أقدّم لها ما يعيدها إليّ ..

ربما لأنني شعرت بأنها لم تعد تريدني كما كانت ..

فقط كانت ترغب في الابتعاد ..

والرحيل ..

حبيبتي لم تعد تحتمل متاعبي ..

أو تحتملني ..

ورحلت ..

رحلت حبيبتي الوحيدة ، وتركتني خلفها غير قادر على النطق ، وعيناي تدوران في كل مكان حولي ..

كل شبر كان يذكرني بها ..

كنت أراها في كل ركن ..

أسمع ضحكاتها وكلماتها في كل مكان ..

أشم عطرها الرقيق فى كل لحظة ..

وجهها لا يفارق خيالى قط ..

وقلبى لا يمكن أن ينساها أبدًا ..

لا يمكننى أن أتصوَّر الحياة بدونها ..

كم أشعر بالحزن لغيابها ..

كم أشعر بالوحدة دونها ..

وكم أجاهد وأقاتل ، بكل ما تبقى فى كيانى من قوة وإرادة وإصرار ؛ حتى أتغلَّب على تلك الظروف العسيرة ، التى حالت بينى وبينها ..

ساعدنى يا رب على تجاوز المحنة ..

ساعدنى على احتمال فراقها ، حتى يعود إلىّ حبها ، أو ترحل .. روحى .

* * *

(تمت)

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

قلب البحر

قصة العدد

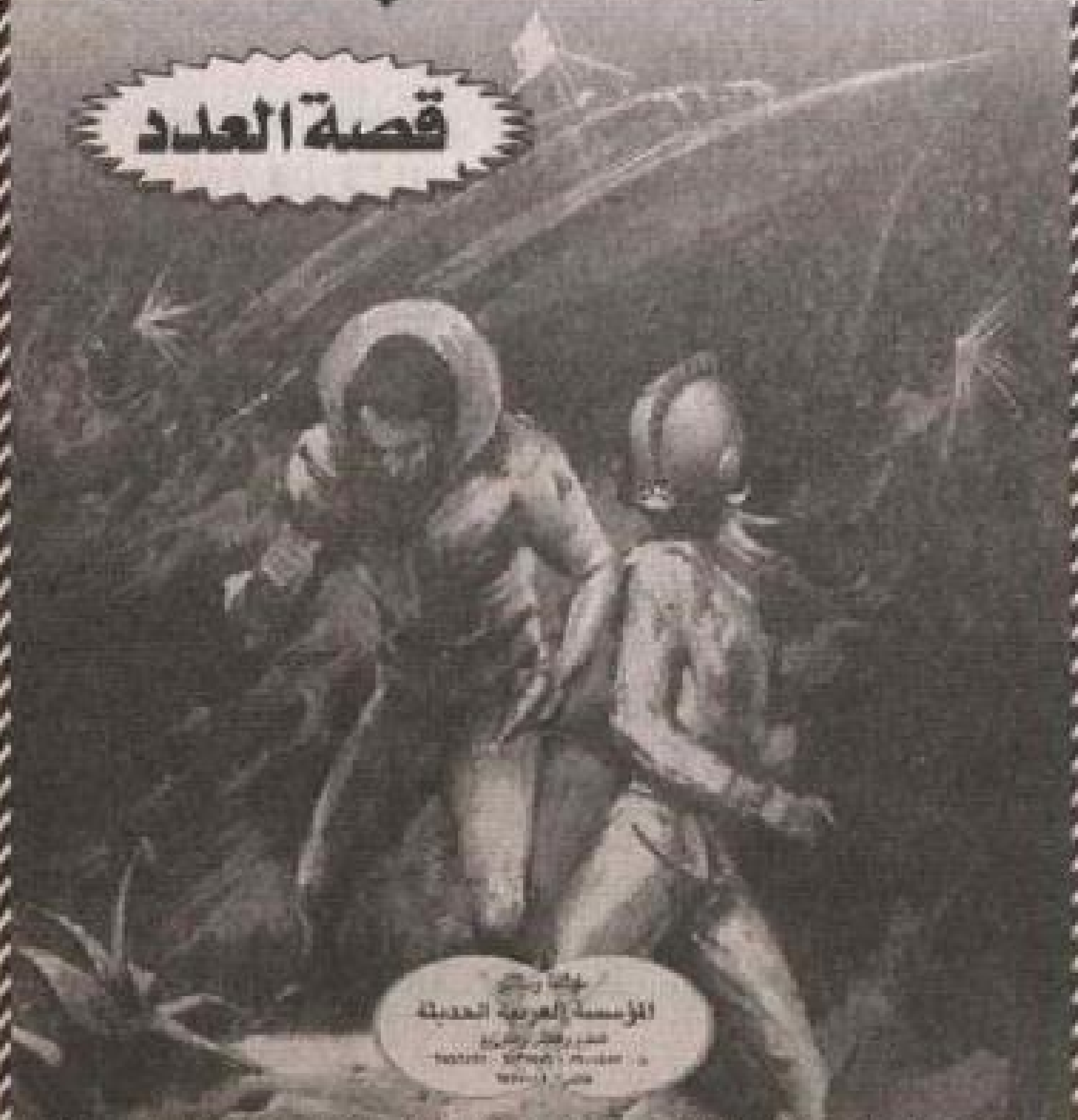

١ـ السـفينة ..

« سفينة مجهولة تقترب من الميناء .. »

انطلق النداء بغتة ، عبر جهاز الاتصال ، في مكتب العميد (ممدوح) ، مدير أمن ميناء الإسكندرية ، الذي لم يكد يسمع العبارة ، حتى اعتدل على مقعده في حركة حادة ، وضغط زر جهاز الاتصال ؛ متسائلاً :

ـ مجهولة ؟! ماذا تعني بأنها مجهولة يا رجل ؟! أية سفينة تدخل مياهنا الإقليمية ، لابد وأن تحدد هويتها وبياناتها ، ومن غير المعقول أن تصل سفينة إلى الميناء ، دون أن تكون لدينا بيانات كاملة عنها ، من خلال ضابط اتصالها ، أو الشركة المالكة لها ، أو حتى قوات حرس السواحل !

بدا من الواضح أن الرجل ، على الطرف الآخر لجهاز الاتصال ، يعاني مزيجًا من الحيرة والارتباك والتوتر ، وهو يجيب :

ـ لم تصلنا أية معلومات ، بشأن هذه السفينة بالتحديد .

هتف العميد (ممدوح) ، وقد انتقلت إليه انفعالات الرجل :

ـ هذا مستحيل !

أجابه الرجل في سرعة ، وكأنه يلقي ما لديه :

ـ هذا ما حدث .

التقى حاجبا العميد (ممدوح) فى شدة ، وعقله يلتهب بأسئلة ، تكاد تلتهم كل ذرة من كيانه ..

سفينة مجهولة ؟!

أى مصطلح هذا ؟!

إنه يعمل فى إدارة أمن الميناء ، منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا ، ولم يسمع هذا المصطلح مرة واحدة !

فالمفترض ـ وفقًا لكل القوانين البحريـة ، والمعايير والأعراف الدولية ـ أن تعلن أية سفينة هويتها فى وضوح ، فور دخولها إلى المياه الإقليمية لأيـة دولـة فـى العالم ، وأن تحصل على تصريح بدخول أى ميناء ، وإلا فمن حق القوات البحريـة أو قوات حرس السواحل ، أن تتصدى لها ، وتوقفها بالقوة ، حتى ولو اقتضى الأمر نسفها نسفًا ، حماية للأمن القومى ..

وهذا لم يحدث مرة واحدة ، منذ التحق بالعمل ..

وحتى لو حدث ، فسيتم التعامل مع السفينة المعنية ، عند حدود المياه الإقليمية ، وعلى مسافة مئات الأميال البحرية من الميناء ..

ولو تجاوز الأمر كل الحدود ، لسبب ما ، ونجحت السفينة فى تجاوز نطاق القوات البحرية ، وقوات حرس السواحل ، واتجهت عنوة نحو الميناء ، فسيتم إرسال تحذير بما حدث ، حتى تنتظر قوات الأمن وصول السفينة ، وتسعى لفرض سيطرتها عليها ، فور رسوّها على رصيف الميناء ..

« السفينة المجهولة تواصل الاقتراب ، بسرعة تتجاوز الحد الأمنى .. »

انتزعت عبارة الرجل العميد (ممدوح) من أفكاره ، وأسئلته الملتهبة ، فازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى دهشة عصبية :

- ألم تبطئ من سرعتها ، استعدادًا لدخول الميناء ؟!

أجابه الرجل فى توتر بلغ ذروته :

- مطلقًا .. إنها تنطلق نحو الرصيف بسرعة عالية ، وفى خط مستقيم ، ولا تستجيب للتحذيرات اللاسلكية أو الضوئية أو إشارات الأعلام البحرية .

شعر العميد (ممدوح) بقشعريرة عجيبة ، تسرى فى كل ذرة من كيانه ، وهو ينهض من مكانه ، متمتمًا :

- عجبًا ! ولكن هذا يمكن أن ..

لم يتم عبارته ، وهو يندفع ، في توتر متناه ، نحو النافذة الكبيرة ، فى نهاية حجرة مكتبه ، والمطلة على رصيف الميناء مباشرة ، والتقط منظاره المقرّب بحركة حادة ، قبل أن يصل إليها ، و ...

وتجمّدت كل ذرة فى كيانه ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

فالأمر لم يكن يحتاج إلى أية مناظير ، مقرّبة أو مكبّرة ..

لقد كانت السفينة واضحة للعين المجرّدة ..

واضحة فى مشهد رهيب ..

رهيب للغاية ..

كانت سفينة سوداء ، داكنة السواد ، يرفرف على ساريتها علم كبير غير واضح المعالم ..

وكانت تتجه نحو الميناء مباشرة ..

وبسرعة مخيفة ..

وثانية أو ثانيتين ، ظلّ العميد (ممدوح) يحدّق فى المشهد ، ثم لم يلبث أن انتفض فى عنف ، وكأنما ينتزع نفسه من حلم عميق ، ثم أزاح (ضلفة) النافذة الزجاجية ، صارخًا بكل قوته وانفعاله :

ـ أخلوا المكان بأقصى سرعة .

وكأن الجميع كانوا ينتظرون صيحته هذه ؛ فلم تكد تنطلق ، حتى انطلق الجميع معها ، يعدون فى كل الاتجاهات ، دون نمط واضح أو محدد ..

لقد تفجَّر نهر من الذعر والهلع فى نفوسهم ، فتركوا ما بأيديهم ، وانطلقوا محاولين الفرار ، من ذلك الوحش المعدنى الطائش ، بأية وسيلة ..

وبأقصى سرعة ..

أما العميد (ممدوح) ، فقد بلغ توتّره ذروة ، لم يبلغها من قبل قط ، وهو يراقب تلك السفينة المجهولة ، وهى تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وبكل قوته ، تشبثت أصابعه بإطار النافذة ، وتجمَّد جسده ، على نحو لم يحدث فى حياته كلها ، عندما صارت السفينة الرهيبة على بعد أمتار قليلة ، من رصيف الميناء ..

ثم كان الارتطام ..

أبشع مشهد رآه فى حياته كلها ..

سفينة ضخمة ، ارتطمت برصيف الميناء ، وحطّمت كل ما أمامها بمنتهى العنف ، قبل أن تثب فوق اليابسة ، وتميل على نحو مخيف ، وهى تواصل اندفاعها ، واكتساح كل ما يعترض طريقها ..

واتسعت عينا العميد (ممدوح) عن آخرهما ..

فالسفينة السوداء كانت تتجه ، فى زحفها على الجزء اليابس ، نحو النافذة التى يقف عندها مباشرة ..

وبسرعة رهيبة ..

وللثانية ، تجمَّد العميد (ممدوح) فى مكانه أكثر ..

وخلال تلك الثانية، بدت له السفينة، وكأنها تتضخَّم، وتتضخَّم، حتى تحولت إلى جدار أسود هائل، راح يتعاظم ويتعاظم، قبل أن يستيقظ عقل العميد (ممدوح) بغتة، ويطلق إشارة خطر إلى عضلاته، التى انتشر فى عروقها الأدرينالين، الناشئ عن الانفعال، فانقبضت كلها بمنتهى القوة، ودفعت جسده إلى الخلف، فى نفس اللحظة التى ارتطمت فيها مقدِّمة السفينة المجهولة، بنافذة حجرة مكتبه، وحطمتها بمنتهى العنف، فتناثر زجاجها فى كل اتجاه ..

ورفع (ممدوح) ذراعيه؛ فى محاولة لحماية وجهه، من الزجاج المتطاير، وهو يصرخ بانفعال غريزى :

ـ مستحيل ! مستحيل ؟

لم يكن يرى ما أمامه، ولكنه كان يدرك مع دوى الأصوات من حوله، أن مقدِّمة السفينة الرهيبة تواصل تحطيم محتويات مكتبه، وهى تتجه نحوه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم فجأة، توقَّف كل شىء ..

وتلاشى الضجيج إلى حد كبير ..

ومع توتره الزائد، خفض العميد (ممدوح) ذراعيه عن وجهه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدِّق فيما أمامه ..

فى ذلك الامتداد المعتم الأسود الهائل ، الذى بدا وكأنه بلانهاية ..

فالسفينة السوداء المجهولة ، توقفت ، بعد أن حطمت كل ما أمامها ، على مسافة ثلاثين سنتيمترًا منه فحسب ..

وكان هذا أعنف موقف واجهه فى حياته كلها ..

أعنف موقف على الإطلاق ..

ليس فى حياته فحسب ، ولكن فى حياة ميناء (الإسكندرية) ..

وفى تاريخه كله ..

* * *

بدا التوتر واضحًا ، على وجوه الحشد الهائل ، من رجال الشرطة والجيش ، الذين أحاطوا بتلك السفينة السوداء ، التى استقرّت على رصيف الميناء ، فى مشهد رهيب ، ينافس أعنف مشاهد أفلام الكوارث ، فى السينما العالمية ..

كان ثلثها الخلفى فقط ما زال داخل الماء ، فى حين استقر ثلثاها الأماميان فوق الرصيف ، وغاصت مقدمتها كلها فى قلب مبنى أمن الميناء الرئيسى ، فى حين مالت السفينة كلها على جانبها الأيمن ، على نحو يوحى بأنه لولا استناد مقدمتها على جدران المبنى الذى اقتحمته ، لسقطت على جانبها ..

أما ما يحيط بها ، فقد كان صورة مجسّمة للدمار والفوضى ، حتى أن مدير الميناء كان يهتف ، فى مزيج من الغضب والمرارة :

- من سيتحمل تكلفة ما حدث ؟! من سيتحمّل مسئولية كل هذا ؟! من ؟!

أجابه العميد (ممدوح) ، فى غلظة لم يتعمّدها :

- اطمئن يا رجل .. إنه ليس أنت بالتأكيد .

هتف مدير الميناء فى حدة :

- من إذن ؟!

زفر العميد (ممدوح) ، بكل ما يعتمل فى صدره من انفعالات والتهابات ، قبل أن يقول فى حدة :

- لا يمكنك أن تتصوّر كم أتمنى معرفة جواب هذا السؤال .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى جذب انتباهه صوت سيارة تقترب من المكان ، فاستدار إلى مصدر الصوت ، وهو يتوقّع رؤية سيارة من سيارات الشرطة ، أو حتى من سيارات الجيش ، لذا فقد انعقد حاجباه بشىء من العصبية ، عندما لاحظ أنها سيارة مدنية عادية ، يقودها رجل وسيم الملامح إلى حد ما ، يرتدى حلّة مدنية أنيقة ، وغمغم :

- من هذا بالضبط ؟!

استدارت العيون كلها إلى السيارة، التى توقفت على مسافة ثلاثة أمتار فحسب من يسار السفينة السوداء، قبل أن يغادرها الرجل، الذى بدا هادئًا إلى حد مدهش، يتنافى مع كل قواعد العقل والمنطق، وهو يتطلع إلى السفينة، قبل أن يقول، فى صوت لايقل هدوءًا عن ملامحه:

- إنها كما وصفوها تمامًا..

ولسبب ما، لم يحتمل العميد (ممدوح) هذا الهدوء الزائد، فاتجه نحو الرجل، وقال فى عصبية واضحة:

- من أنت بالضبط ؟! وكيف دخلت بسيارة مدنية إلى هنا، فى مثل هذه الظروف، و....

قاطعه الرجل، وهو يلتفت إليه فى هدوء:

- اسمى (رأفت) .. من جهاز المخابرات .. وأنا أتولى القضية، منذ هذه اللحظة.

انعقد حاجبا مدير الميناء فى توتر، وهو يردد:

- المخابرات ؟!

وسرت همهمة غير واضحة فى المكان، وكأنما يتناقل الجميع الخبر، فى حين تساءل العميد (ممدوح) بنفس العصبية:

- وما شأن المخابرات بأمر كهذا ؟! اقتحام سفينة مجهولة للميناء، أمر يخصّ الأمن العام ؟!

ابتسم (رأفت) هذا فى هدوء ، وهو يقول :

ـ ربما كان للمسئولين رأى آخر .

قالها ، وهو يتجه نحو السفينة ، فلحق به العميد (ممدوح) ، قائلاً ، وهو يحاول عبثًا السيطرة على عصبيته :

ـ المفترض ، وِفْقَ ماتعلمناه ، أنه لاشأن للمخابرات بالأمور الداخلية ، وأن ..

قاطعه (رأفت) ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ هل صعد أحد إلى سطحها بعد ؟!

مطَّ (ممدوح) شفتيه ، وكأنما لم يرق له الأمر كله ، إلا أنه أجاب فى توتر شديد :

ـ ليس بعد .. لقد استخدمنا مكبرات الصوت ؛ لنطالب من على سطحها بالاستجابة ، ولكننا لم نتلق جوابًا ، ثم إن العلم الذى يعلو ساريتها ، غير معروف على الإطلاق ، لا بين الأعلام الدولية ، أو حتى البحرية .

رفع (رأفت) عينيه ، يتطلَّع إلى العلم ، الذى ما زال يرفرف على سارية السفينة ، بلونه الذهبى المتألق ، والذى تتوسطه دائرة حمراء لامعة ، ثم قال فى هدوء :

ـ بالتأكيد .

لم يتمالك (ممدوح) نفسه ، فقال فى حدة :

ـ يبدو أنك لا تبالى كثيرًا بالأمر ، يا رجل المخابرات .

خفض (رأفت) عينيه إليه فى هدوء مدهش ، وتطلّع إليه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ لا تجعل الظواهر تخدعك يا رجل .

أراد (ممدوح) أن يقول عبارة أخرى ، يعارض بها قول رجل المخابرات ، إلا أنه لم يكن قد فتح فمه بعد ، عندما تابع (رأفت) فى حزم :

ـ أريد ما يساعدنى على الصعود إلى سطح السفينة .

هتف (ممدوح) فى دهشة مستنكرة :

ـ ألن ننتظر رجال المعمل الجنائى أولاً ؟!

أشار (رأفت) بيده ، قائلاً فى حزم أكثر :

ـ دعنا نرى أولاً ، ما إذا كنا سنحتاج إليهم أم لا .

قالها ، ثم بدأ يلقى تعليماته إلى من حوله ، لإعداد وسيلة الصعود إلى سطح السفينة المجهولة ، فعقد (ممدوح) حاجبيه ، وحاول أن يلوذ بالصمت لبعض الوقت ، إلا إنه لم يستطع تمالك نفسه تمامًا ، فقال فى شىء من الحدة ، حمل رنة غضب واضحة :

ـ وفقًا لما تعلمناه ، ينبغى ألا تتدخَّل ، فى مسرح الجريمة ، قبل وصول رجال المعمل الجنائى .

لم ترق له أبدًا تلك الابتسامة ، التى ارتسمت على شفتى (رأفت) ، وهو يقول :

ـ مسرح الجريمة ؟! إننا لم نتأكَّد بعد ما إذا كنا أمام جريمة أم لا ، يا سيادة العميد .

فجأة ، ومع تلك الكلمات ، انتبه (ممدوح) فجأة إلى حقيقة الموقف ..

صحيح أن تلك السفينة قد اقتحمت الميناء على نحو لم يحدث من قبل قط ، وأنها أثارت موجة غير مسبوقة من الرعب والتدمير فى المكان ، إلا أن شيئًا لم يؤكد بعد أن هناك جريمة ما ، وراء ما حدث ..

ربما افترض الكل هذا ، عندما لم تستجب السفينة لكل محاولات الاتصال ، حتى بعد ارتطامها بالميناء ..

أو ربما لأنه لم يظهر على سطحها شخص حى واحد ، لا من طاقمها ، ولا حتى من ركابها ..

هذا جعل الكل يتصوَّر أن السفينة تحمل جثث الجميع ، الذين لقوا مصرعهم لسبب ما ..

سبب لم يخطر ببال مخلوق واحد ..

ولكن العنف ، والمفاجأة ، والتدمير، كلها دفعن الأذهان جميعها نحو افتراض وجود جريمة ما ..

هذه هى الصورة الوحيدة ، التى ملأت عقول الجميع ، مع كل ما حدث ..

ولكن رجل المخابرات هذا جاء ليلقى عبارة ، فجّرت سؤالاً مقلقًا للغاية فى الأذهان ..

كل الأذهان ..

لو أن ما حدث ليس بسبب جريمة ما ، فما الذى يمكن أن يكون ؟!

كاد السؤال ينتقل ، من ذهن العميد (ممدوح) إلى لسانه ، وهو يصعد مع (رأفت) وحدهما ، إلى سطح السفينة ، إلا أنه قرّر أن يدخره لنهاية الفحص ؛ فقد تثبت المشاهدة أن هناك جريمة ما بالفعل ..

ولكن النظرة الأولى لم تكن توحى بهذا على الإطلاق ..

فسطح السفينة الغامضة كان هادئًا ، نظيفًا ، خاليًا من أى أثر للحياة ..

أو حتى للموت ..

لم تكن هناك جثثًا متناثرة ، كما رسم خيال (ممدوح) فى البداية ، أو بقع دماء ، أو حتى بقع مجهولة الهوية ..

كل شىء كان نظيفًا هادئًا ، إلى درجة تتجاوز حتى ما يمكن وجوده ، فى الظروف العادية ..

وبكل دهشة الدنيا ، هتف (ممدوح) :

ـ ما الذى حدث هنا بالضبط ؟!

أدار (رأفت) عينيه فى المكان ، وهما يتجولان فى أرجاء السفينة ، وأجاب بنفس الهدوء ، الذى ما زال يستفز العميد (ممدوح) :

ـ سؤال جيد يا سيادة العميد ؛ فحتى الآن ، تبدو لى السفينة خالية تمامًا من البشر ، أو من أى نوع آخر من الحياة .. بل يخيَّل إلىّ أنه لا يوجد بها حتى تلك الفئران ، التى تتواجد عادة فى قاع السفن .

تطلَّع (ممدوح) فى توتر إلى قمرة القيادة ، التى بدت مثالية أكثر مما ينبغى ، وكل شىء فيها مرتب منسق ، على نحو يوحى بأن يدًا لم تعبث بها ، أو حتى تزاول فيها أية أعمال معتادة ، منذ فترة طويلة للغاية ، وعادت عشرات الأسئلة تعربد فى رأسه ، قبل أن يرفع عينيه مرة أخرى إلى ذلك العلم الذهبى ، ذى الدائرة الحمراء اللامعة ، مغمغمًا فى عصبية شديدة :

ـ لست أفهم شيئًا .. هذه السفينة تبدو وكأنها قد خرجت من حوض بناء السفن منذ قليل ، ولم يتم تدشينها بعد !! كيف تجاوزت مياهنا الإقليمية ، بحالتها هذه ، دون أن يستوقفها أحد ؟!

قال (رأفت) ، فى شىء من الصرامة :

ـ إنها لم تفعل .

استدار إليه (ممدوح) ، يسأله فى دهشة متوترة :

ـ لم تفعل ماذا ؟!

أجابه (رأفت) ، فى صرامة أكثر :

ـ لم تدخل مياهنا الإقليمية ؟!

هزّ (ممدوح) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ أى قول هذا يا رجل المخابرات ؟! السفينة هنا بالفعل ، ولقد تجولنا فيها معًا ، وفحصنا كل حجراتها تقريبًا ، فكيف تقول إنها لم تدخل مياهنا الإقليمية ؟!

استدار إليه (رأفت) بجسده كله ، وهو يقول فى حزم :

ـ ليس هذا ما أقوله يا سيادة العميد ، بل ما تقوله تقارير رادارات القوات البحرية ، وزوارق المراقبة التابعة لحرس السواحل .. هذه السفينة لم تعبر مياهنا الإقليمية قط ، بل ظهرت فجأة ، على بعد عدة أميال بحرية من الميناء .. نعم لا تحدق فى وجهى بكل هذا الذهول المستنكر .. لقد سمعتنى جيدًا .. هذه السفينة ظهرت فى البحر فجأة .. ظهرت من العدم ..

وكانت مفاجأة للعميد (ممدوح) ..

مفاجأة مذهلة ..

* * *

٢ـ الأشـــباح..

على الرغم من كل ما بذله من جهد ، لم يستطع العميد (ممدوح) أبدًا السيطرة ، على تلك الارتجافة التى سرت فى جسده ، والتى تواصل رج مشاعره كلها ، منذ كان مع رجل المخابرات على متن تلك السفينة الغامضة ..

وعندما انتقلت تلك الارتجافة إلى أصابعه ، وإلى رشفات الشاى الساخن ، التى تناثرت من طرف شفتيه ، شعر بحنق وسخط شديدين ، حاول أن يخفيهما ، مع توتره وارتجافته ، خلف نبرات غاضبة زائفة ، وهو يقول فى عصبية بدت مبالغة :

ـ قلت : إنك لن تستعين برجال المعمل الجنائى .

هزَّ (رأفت) كتفيه فى هدوء ، وهو يجيب :

ـ بل قلت : إننا لاندرى ما إذا كنا سنحتاج إليهم أم لا .. لقد صعدنا إلى سطح تلك السفينة ، وكلانا يجهل تمامًا ما يمكن أن يواجهنا هناك ، ثم ..

قاطعه (ممدوح) بحدة مفاجئة :

ـ هراء .

التفت إليه رجل المخابرات ، بوجه يخلو من الانفعالات تقريبًا ، فتابع فى حدة :

- أراهن أننا ، عندما صعدنا إلى تلك السفينة ، كنت أنت تعلم ما سنجده هناك .

كان يتوقع غضبًا أو استنكارًا ، أو محاولة غليظة للنفى على الأقل ؛ لذا فقد أدهشه حقًا أن ارتسمت ابتسامة هادئة ، على شفتى رجل المخابرات ، وهو يقول :

- ومن أين لى أن أعرف ؟!

صاح به (ممدوح) ، وقد تضاعف غضبه :

- إنك لم تبد أية انفعالات مناسبة ، عندما وجدنا ما وجدناه هناك .

مال (رأفت) نحوه ، وسأله بمنتهى الهدوء :

- وما الذى وجدناه هناك ؟!

تراجع (ممدوح) بحركة حادة ، واتسعت عيناه فى هلع عجيب غير مبرر ، قبل أن يقول فى حدة :

- لاشىء ..

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد فى حنق :

- وكان هذا كفيلاً بأن يدهشك .

لم يعلّق (رأفت) على القول لبضع لحظات ، وإنما بدا أكثر غموضًا من أية لحظة مضت ، وهو يتطلّع إلى عينى (ممدوح) مباشرةً ، فى صمت تام ، قبل أن يعتدل فجأةً ، ويقول فى حزم :

ـ عندما تبدأ مهمتى بتقرير عن سفينة غامضة ، تحمل علمًا مجهولاً ، ظهرت فى مياهنا الإقليمية ، وعلى شاشات راداراتنا فجأةً ، وكأنما نبتت من العدم ، فمن الطبيعى أن يكون لدى كل الاستعداد ، لاستيعاب أية مفاجأة أخرى ، على متن تلك السفينة ، بعد أن ارتطمت بأهم موانى (مصر) ، على نحو يوحى بأنها كانت تنطلق طوال الوقت بلا قبطان .

استوعب عقل (ممدوح) هذا المنطق بسرعة عجيبة ؛ إذ لم يستغرق سوى ثوان ثلاث ، حدّق خلالها فى وجه (رأفت) ، قبل أن يسأله ، فى توتر لم يفارق صوته بعد :

ـ وهل رأى المسئولون أن المخابرات هى أفضل جهة ، للتحقيق فى أمر كهذا ؟!

تراجع (رأفت) فى مقعده ، فى هدوء عجيب ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يواصل التطلّع إلى (ممدوح) فى صمت ، لفترة زادت عن الدقيقة الكاملة ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

ـ هل سمعت يومًا عما يُعرف باسم (تجربة فيلادلفيا) ؟!

انعقد حاجبا (ممدوح) فى توتر ، وهو يتساءل :

ـ تجربة ماذا ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه فى بطء ، ثم قال فى حزم لم ينتقص من هدوئه المدهش :

ـ فى ذروة الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد فى أكتوبر ١٩٤٣م ، فى القاعدة البحرية الأمريكية فى (فيلادلفيا) ، أجريت تجربة مدهشة ، كان من الممكن أن تغير تاريخ العالم كله .

تساءل (ممدوح) ، وتوتره يتصاعد :

ـ أية تجربة تلك ؟!

واصل (رأفت) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ لقد قام فريق من العلماء بتركيب عدد من الأجهزة ، على المدمرة البحرية (DE - 173) ، وعلى مدمرتين أخريين حولها ، ثم بدأت التجربة ، فأطلقت المدمرتان الأخريان طاقة ما ، اتصلت بالأجهزة على متن (DE - 173) ، وأحاطتها بطنين قوى ، و ....

قاطعه (ممدوح) فى عصبية :

ـ هل ستواصل الخوض فى التفاصيل طويلاً ؟!

رمقه (رأفت) بنظرة هادئة صامتة ، قبل أن يعتدل بحركة حاسمة ، قائلاً :

ـ اختفت .

ردّد (ممدوح) ، فى توتر عصبى حذر :

ـ ما الذى اختفى ؟!

أجابه (رأفت) فى حزم :

ـ المدمرة (DE - 173) ، اختفت تمامًا(*) .

فغر (ممدوح) فاه ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فنهض (رأفت) من مقعده ، وهو يواصل بنفس الحزْم :

ـ فى ذلك الحين ، اختفت المدمرة ، أمام أعين الجميع ، بعد أن تمت إحاطتها بمجال كهرومغنطيسى قوى ، وعلى الرغم من هذا فقد فشلت التجربة تمامًا ؛ لأن المجال الكهرومغنطيسى ، الذى أخفاها عن الأعين ، أصاب كل البحارة على سطحها بما يشبه الجنون ، بل وتسبّب فى مصرع اثنين من أفراد طاقمها أيضًا ، كما أن أجهزتها كلها أصيبت بالخلل ؛ بسبب المجال نفسه ، مما جعل الكل يجزم بأن فكرة الإخفاء ، بهذا الأسلوب بالذات ، غير مجدية على الإطلاق ، مما ألقى التجربة ونتائجها كلها فى غياهب النسيان .

شحب وجه (ممدوح) ، على نحو عجيب ، وهو يغمغم :

ـ إنك لا تقصد أن ..

قاطعه (رأفت) بإشارة من يده ، جعلته يطبق شفتيه تمامًا ، فى حين تابع هو :

(*) تجربة حقيقية ، لم تعترف الولايات المتحدة بإجرائها رسميًا أبدًا ، ولكن المشاركين فيها كلهم أكدوا حدوثها ، فى ذلك التاريخ .

- التجربة التى أخبرك عنها ، تمت منذ ما يزيد عن ستين عامًا ، وكلانا يعلم كم تطوَّر العلم ، خلال تلك الفترة الطويلة ، فلقد قرأت فى إحصائية علمية قريبة ، أن العلم قد تطوَّر ، خلال الأعوام العشرين الأخيرة ، بمعدَّل يفوق ضعف تطوُّره ، منذ القرن الثالث الميلادى ، حتى منتصف القرن العشرين(*) .

تمتم العميد (ممدوح) مبهوراً :

- يا إلهى ! يا إلهى !

مطَّ (رأفت) شفتيه ، قبل أن يسأله :

- هل استوعبت الأمر ؟!

أطلق (ممدوح) زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماق صدره ، قبل أن يغمغم فى عصبية بالغة :

- إننى أبذل قصارى جهدى .

أزاح (رأفت) ستارة نافذة تلك الحجرة ، التى يجلسان فيها ، فى مبنى الدائرة الجمركية ، وألقى نظرة طويلة على السفينة المجهولة ، التى بدت رهيبة المظهر ، مع أضواء الغروب ، التى امتزجت بمصابيح الميناء ، والأضواء التى يستخدمها رجال المعمل الجنائى ، المنتشرون على سطحها ،، والذين يقومون بفحص كل سنتيمتر منها ، فى حين ارتشف (ممدوح) رشفة من الشاى ، الذى فقد الكثير من حرارته ، قبل أن يتساءل :

(*) حقيقة .

ـ هل تعتقد أن هذه السفينة المجهولة ، هى امتداد لتلك التجربة فى (فيلادلفيا) ؟

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

هذا احتمال وارد .

تساءل (ممدوح) فى عصبية :

ـ ولماذا اختيار ميناء (الإسكندرية) ، لاختبار أمر كهذا ؟!

هزّ (رأفت) رأسه ، مغمغما :

ـ من يدرى ؟!

وعاد إلى صمته بضع لحظات أخرى ، وهو يواصل مراقبة السفينة ، عبر زجاج نافذة الحجرة ، ثم لم يلبث أن استدار إلى (ممدوح) ، قائلاً :

ـ من الواضح أن هذه السفينة نتاج تجربة ما .. ليست تجربة مماثلة لما حدث فى (فيلادلفيا) الأمريكية ، عام ١٩٤٣م ، ولكنها تجربة مخيفة بالتأكيد ، فالسفن المختفية ، قد لاتبدو واضحة للأعين ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لأجهزة الرادار .. الأمر الوحيد ، الذى ربما تشترك فيه التجربتان ، هو أن هذه السفينة خالية تماماً من البشر ، الذين مازالوا لايحتملون التواجد داخل مجالات كهرومغنطيسية قوية .

غمغم (ممدوح) ، وهو يزيح قدح الشاى بعيدًا ، فى توتر ملحوظ :

ـ رباه ! ما الذى نواجهه بالضبط ؟!

هزّ (رأفت) رأسه ، وقال ، وهو يعود ببصره إلى السفينة :

ـ أتعشّم أن يحمل إلينا رجال المعمل الجنائى أى د ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وعلى نحو جعل (ممدوح) يلتفت إليه ، متسائلاً فى توتر شديد :

ـ ماذا حدث ؟!

لم يجب (رأفت) تساؤله ، فاندفع نحو النافذة بدوره ، وموجة التوتر تنتقل عبر أطرافه فى سرعة مخيفة ، ولكنه لم يكد يلقى نظرة على السفينة السوداء المجهولة ، التى تضاعف سوادها مع مغيب الشمس ، حتى تحوّل التوتر إلى موجة ارتجافية عنيفة ، شملت كيانه كله ، من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ، ومن أطراف جلده ، حتى نخاع عظامه ، وعيناه تتسعان إلى أقصاهما ، وعقله يكاد يثب خارج جمجمته ..

فأعلى سارية السفينة ، كان ذلك العلم الذهبى يتألق ، على نحو مدهش ، وفى إيقاع منتظم هادئ ، كما لو أنه يرسل رسالة ما ..

ولكن هذا وحده لم يكن السبب ..

فهناك أيضًا ، فى قلب البحر ، كان يكمن سبب آخر ..

إيقاع مماثل ، متألّق بشدة ، يجيب الإيقاع الأوّل ، فى فترات سكونه وصمته ..

وكان هذا يعنى أن اللغز لا يكمن فى السفينة وحدها ..

بل يكمن أيضًا هناك ..

فى قلب البحر ..

* * *

« لم نجد شيئًا ، فى قلب البحر .. »

تردّد النداء ، عبر جهاز الاتصال ، فى حجرة أمن الميناء المؤقّتة ، فانعقد حاجبا (ممدوح) ، فى توتر شديد ، فى حين بدا (رأفت) هادئًا أكثر مما ينبغى ، وهو يقول :

ـ كنت أتوقّع هذا .

حدّق فيه (ممدوح) فى دهشة ، وكاد ينفجر فى وجهه مستنكرًا ، إلا أن (رأفت) مال بحركة مفاجئة ، ليضغط زر الاتصال ، قائلاً :

ـ من القيادة المؤقّتة إلى قيادة حرس السواحل .. هل فحصتم المنطقة كلها جيّدًا ؟!

مضت لحظة من الصمت ، بدت للعميد (ممدوح) أشبه بدهر كامل ،

قبل أن ينبعث صوت قائد حرس السواحل ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول ، فى توتر حملته كلماته فى وضوح :

ـ نعم .. فحصنا المنطقة بمنتهى الدقة ، وحددنا مثلكم موضع انبعاث ذلك البريق العجيب ، ولكننا ، عندما وصلنا إليه ، لم نجد أى شىء على الإطلاق .

سأله (رأفت) فى اهتمام :

ـ وماذا عن القوات البحرية ؟!

أجابه قائد حرس السواحل بنفس التوتر :

ـ لقد أرسلوا لنشين وغوّاصة ، ولم يعثروا على أى شىء ، لاعلى سطح البحر ، أو حتى فى أعمق أعماقه .

لم يستطع (ممدوح) الاحتمال ، عند هذه النقطة ، فهتف فى حدة :

ـ ما الذى يمكن أن يعنيه هذا بالضبط ؟!

أشار إليه (رأفت) إشارة صارمة ، قبل أن يقول لقائد حرس السواحل ، عبر جهاز الاتصال :

ـ واصلوا المحاولة ، لنصف ساعة أخرى ، ثم أبلغونى مرة ثانية بالنتائج .

أنهى الاتصال ، وهو يعقد حاجبيه ، فى تفكير عميق ، فكرّر (ممدوح) هتافه ، فى حدة أكثر :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يتجه نحو النافذة ، ويتطلَّع مرة أخرى إلى تلك السفينة ، وعلمها الذى توقَّف عن التألُّق ، ثم مد بصره بعيدًا إلى البحر ، مغمغمًا :

ـ لاشك فى أننا أمام لغز ضخم .. لغز غامض رهيب .

وصمت لحظة أخرى ، تابع خلالها أضواء مصابيح رجال المعمل الجنائى ، الذين مازالوا يواصلون عملهم على سطح السفينة ، قبل أن يشير بيده ، متابعًا :

ـ لغز يمتد من تلك السفينة ، الرابضة هنا ، إلى عمق البحر .

مطَّ (ممدوح) شفتيه ، متمتمًا :

ـ أنا أكره الألغاز ..

صمت (رأفت) ، بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ عمل الشرطة لايناسبك إذن .

ارتفع حاجبا (ممدوح) ، فى دهشة مستنكرة ، ثم عادا ينعقدان فى غضب ، وهو يقول :

ـ كونك رجل مخابرات ، لايبيح لك إهانة الآخرين ، على هذا النحو .

عقد (رأفت) حاجبيه ، وبدا شاردًا ، وهو يواصل مراقبة السفينة السوداء الغامضة ، متمتمًا :

ـ لم تكن إهانة .

أراد (ممدوح) أن يسأله فى غضب ، عما يعنيه هذا بالضبط ، إلا أن (رأفت) اعتدل فجأة ، وقال فى اهتمام :

ـ لقد أنهوا عملهم .

كان الجواب واضحًا للغاية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سأله (ممدوح) فى توتر :

ـ من هم ؟!

اندفع (رأفت) نحو باب الحجرة ، وهو يقول :

ـ رجال المعمل الجنائى .

اندفع (ممدوح) خلفه ، هاتفًا :

ـ إلى أين تذهب ؟! المفترض أن ننتظر التقرير الرسمى .

هتف (رأفت) ، وهو يثب درجات السلم ، على نحو يعلن لهفته ، التى أخفاها صوته وملامحه :

ـ لن نفعل .. السلطة التى منحنى إياها سيادة الرئيس ، تبيح لى معرفة النتائج فورًا .

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد (ممدوح) ، عندما أتى (رأفت) على ذكر مؤسسة الرياسة ، ووجد نفسه يغمغم فى عصبية :

ـ الأمر إذن خطير .. خطير بحق .

لم تمض دقيقة واحدة ، على غمغمته هذه ، حتى كان يقف مع رجل المخابرات ، أمام مسئول المعمل الجنائى ، على مسافة خمسة أمتار فحسب من السفينة المجهولة ، وهذا الأخير يقول ، فى توتر بدا وكأن عدواه تنتقل بسرعة إلى الجميع .

ـ لم نعثر على أية علامات ظاهرية .

هتف (ممدوح) بالعبارة التى اعتادها لسانه ، من كثرة ما ردَّدها ، فى الآونة الأخيرة :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

قلب مسئول المعمل الجنائى كفيه ، وهو يقول ، حيرة امتزجت بتوتره :

ـ يعنى أنه لايوجد شىء واضح .. لا بصمات ، أو آثار أقدام ، أو بقايا طعام ، أو شراب ، أو حتى قطرة دم واحدة .

ثم انعقد حاجباه ، من شدة توتره ، وهو يضيف :

ـ باختصار لايوجد دليل واحد على أن أى كائن حى ، حتى الفئران ، قد وطأ هذه السفينة بقدميه .

قال (ممدوح) في عصبية :

- وماذا عنا ؟! لقد صعدنا ، رجل المخابرات وأنا إلى سطح هذه السفينة ، و ....

قاطعه مسئول المعمل الجنائي في حدة :

- حتى هذا ، لم نعثر على أثر واحد يثبته .

انعقد حاجبا (رأفت) في شدة ، عند هذه النقطة ، في حين اتسعت عينا (ممدوح) بمنتهى الدهشة ، وهو يهتف :

- ماذا تعني بهذا القول ؟! لقد صعدنا إلى سطح تلك السفينة بالفعل ، ومن المستحيل أن نفتش كل جزء منها ، دون أن نترك خلفنا أدنى أثر !

قال مسئول المعمل الجنائي ، في حدة أكثر :

- ولكن هذا ما حدث !! صحيح أنه يخالف كل القواعد العلمية في عالمنا هذا ، ولكنه حدث ، ومازال يحدث .. حتى نحن لم نترك خلفنا أدنى أثر ، خلال فحصنا لهذه السفينة المخيفة .. لم نترك خلفنا شيئاً ، وكأننا مجرَّد أشباح على سطحها .

ازداد انعقاد حاجبي (رأفت) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، في حين هتف (ممدوح) مستنكراً ومتوتراً :

- مستحيل !

قال مسئول المعمل الجنائى فى سرعة :

ـ ولكنه حدث .. شئنا أم أبينا ..

ثم التفت إلى جسم السفينة ، الذى بدا هائلاً من موقعهم هذا ، وأشار إليها بسبّابة مرتجفة ، مستطردًا :

ـ هذه السفينة ليست من عالمنا .. أستطيع أن أجزم بهذا ، ولكننى عاجز عن كتابته فى تقرير رسمى ، وإلا فستتهموننى بالجنون رسميًا ، أو ....

أمسك (رأفت) بكتفه بغتة ، على نحو انتفض له جسد الرجل بمنتهى العنف ، واستدار إليه بمنتهى الحدة والتحفّز ، فقال رجل المخابرات فى صرامة ، حطّمت هدوءه المستفز :

ـ أريد عينات من جسم السفينة ، وطلائها ، وقماش ذلك العلم العجيب ، الذى يرفرف أعلى الصارى الرئيسى بها ، و ....

قاطعه مسئول المعمل الجنائى ، فى عصبية بلغت أوجها :

ـ رويدك يا هذا .. ماتطلبه ربما يبدو لك أشبه بإجراء تقليدى بسيط ، ولكن الواقع أنه مستحيل !

هتف له (رأفت) فى صرامة :

ـ مستحيل .. ولماذا ؟؟!

أجابه مسئول المعمل ، وقد امتزجت عصبيته برنة يأس وإحباط عجيبة :

- لأن كل وسائلنا المعروفة ، والمتطورة أيضًا ، لم تنجح في الحصول على عينة واحدة من جسم هذه السفينة لا شيء نعرفه ، قادر على خدش أى شيء فيها ، حتى الستائر القماشية .. أو التى تبدو قماشية .. بل وحتى الخرائط الورقية فى حجرة القبطان ، وقمرة المهندسين ..

تضاعفت دهشة (ممدوح) هذه المرة ، حتى بلغت ذروة ، لم تبلغها قط فى حياته كلها ، فى حين بدا (رأفت) صارمًا متوترًا ، على نحو ربما لم يحدث أبدًا ، فى حياته بأكملها ، ومسئول المعمل يضيف ، فى لهجة رجل بلغ منه اليأس مبلغه :

- باختصار ووضوح أيها السادة .. نحن امام سفينة سوبر سفينة خارقة ، لا نعلم من أين أتت ، ولا حتى لماذا أتت إلى عالمنا هذا .

كان قوله وحده يكفى ؛ لتفجير قنبلة من الذهول والرعب ، فى قلوب سكان مدينة ضخمة بأكملها ، ولكن يبدو أن البحر ، الممتد أمامهم بلا حدود ، قد أبى أن يكتفى بهذا ؛ فلم يكد مسئول المعمل الجنائى يتم قوله ، حتى راحت بقعة منه تتألق فجأة ، بضوء فسفورى أخضر ..

وفى هذه المرة أيضًا ، تجاوب العلم الغريب أعلى السفينة ، مع ذلك التألق البحرى العجيب ..

وكان هذا كافيًا ، ليبلغ الذهول والرعب والحيرة أقصى حد يمكن بلوغه ، فى كائن حى ..

على الإطلاق .

* * *

٢ ـ كل الغمـــوض ..

هبط الظلام ، ليغمر منطقة الميناء كلها ، ويطغى على المصابيح ، التى بدا ضوؤها باهتًا واهيًا ، مع الضباب الذى راح ينتشر ، على نحو يوحى بأن الصباح سيحمل موجة حارة عنيفة ..

ولفترة لم يدر مقدارها بالضبط ، وقف العميد (ممدوح) ، على رصيف الميناء ، يتطلّع فى صمت إلى تلك السفينة السوداء الرهيبة ، التى لم تبدأ إجراءات إعادتها إلى البحر بعد ، انتظارًا لانتهاء تحقيقات الأمن ..

ثم فجأة ، قرّر أن يذهب إليها ..

أن يعتلى متنها ، ويسبر أغوارها ، ويتحدّى ذلك الغموض المستفز ، الذى يحيط بكل ما يتعلّق بها ..

جرفه الحماس للفكرة ، فلم يدر حتى كيف فعلها ، وإنما وجد نفسه فجأة على سطحها الواسع ، النظيف ، اللامع ، الذى يوحى بأن أحدًا لم يمسّه قط ..

حتى رجال المعمل الجنائى ..

ومرة أخرى ، سرى فى جسده ذلك الشعور المركّب ، الذى يجمع بين التوتر ، والرهبة ، والدهشة ، والحيرة ..

والخوف أيضًا ..

فالسفينة ، على الرغم من صمتها وسكونها ، كانت تحمل فى كل ركن منها شيئًا ما ، لا يمكن وصفه ..

شيئًا يبث فى نفسك ذلك المزيج الرهيب ، من المشاعر والانفعالات ..

أضف إلى هذا رائحة خاصة ، مخيفة للغاية ..

رائحة الموت ..

لو أن له رائحة ..

ولوهلة ما ، بدا له أنه داخل قبر هائل ..

قبر مائى متحرك ..

ومن أعمق أعماقه ، تصاعد ذلك الشعور ، وتضاعف ، وراح يرسم من حوله خيالات وظلال رهيبة ..

خُيِّل إليه أن السفينة تموج بالأشباح ..

أشباح بحّارة ، وركاب ، ومهندسين ، وقبطان ..

خُيِّل إليه أن نوعًا من الحياة قد دب فيها ، وسرى فى كل شبر منها ، حتى إنه كاد يسمع نبضات قلبها ..

قلب السفينة ..

وفى توتر ، ما له من مثيل ، راح العبيد (ممدوح) يتجول فى السفينة الغامضة ..

ويتجول ..

ويتجول ..

وفى كل متر يقطعه ، كان ذلك الشعور العجيب يتعاظم فى أعماقه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

هذه السفينة حية ..

إنه يسمع أنفاسها ..

يشعر بنبضات قلبها ..

يدرك مشاعرها ..

وأحاسيسها ..

و ...

ماذا أصابه ؟!

كيف اقتنع بمثل هذه الفكرة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

كان عقله يستنكر الفكرة ، التى أمتلأ بها كيانه ، ولكن أعمق أعماق مشاعره كانت تتجاوب معها بشدة ..

بمنتهى الشدة ..

بل باقتناع أقرب إلى اليقين ..

يقين من أنه يسمع نبضات قلب السفينة ..

يسمعها بكل وضوح ..

ومع ذلك اليقين المفاجئ ، توقّف دفعة واحدة ، وبدأ يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

وبكل مشاعره ، تمنى لو أن (رأفت) يصاحبه الآن ..

يواجه معه تلك الأحاسيس العجيبة ..

الرهيبة ..

المخيفة ..

ولأنه يقف وحده تمامًا ، فقد قرّر أن يغادر سطح هذه السفينة الغامضة المجهولة ..

وبأقصى سرعة ممكنة ..

ومع قراره ، استدار العميد (ممدوح) ؛ ليغادر السفينة ، و ...

وفجأة ، تجمد في مكانه ..

فأمامه مباشرة ، وعلى مائدة صغيرة تبرز من جدار القمرة المعنى ، كانت هناك منفضة سجائر ، استقرت فيها سيجارة ..

سيجارة اشتعلت قمتها ، وتصاعد منها الدخان ، ليرسم منحنيات متراقصة ، في هواء القمرة ..

وبكل ذهول ورعب الدنيا ، حدق العميد (ممدوح) في تلك السيجارة ، وكاد يتجمد في مكانه تمامًا ، لولا تلك الأصوات المتداخلة ، التي انبعثت من خلفه بغتة ، والتي أجبرته على أن يلتفت إليها ، و ...

ووثب قلبه من بين ضلوعه ..

لم يرتجف أو ينتفض فحسب ..

بل وثب من بين ضلوعه وثبًا ..

فهناك ، في تلك القمرة ، كانت الحركة في كل مكان ..

عدد من البحارة ، وضابط أو ضابطين ، في ثياب ذات ألوان ذهبية عجيبة ، يمارسون حياتهم العادية ، كما يفعل أي بحارة ، في أوقات راحتهم ..

كان بعضهم يلعب الورق ، والبعض الآخر يقرأ الصحف والمجلات ، ومجموعة تناقش أمرًا ما فى أحد الأركان ، فى حين اكتفت مجموعة أخرى بالاسترخاء ، ومشاهدة بعض الصور المتحركة فى ركن آخر ..

وكانت هناك أطباق طعام ، وأكواب شراب ، وأدخنة سجائر ، وكل ما يرتبط بمثل هذه المواقف ..

ولم يكن هناك شخص واحد يوليه اهتمامًا ، أو ينظر إليه ، أو يبالى حقًا بوجوده ..

كان وكأنه ليس هناك ..

وكأنه هو الشبح الوحيد ، وسط الأحياء ..

ثم فجأة ، وفى غمرة انفعاله ، الذى تجاوز ذروته ، شعر بيد قوية تمسك كتفه من الخلف ، مع صوت عميق ، يقول :

ـ العميد (ممدوح) ..

وانتفض جسده بمنتهى العنف ، و ....

واستيقظ ..

استيقظ ليحدق فى وجه رجل المخابرات ، الذى يسأله فى قلق واضح شديد :

ـ أكابوس هو ؟!

ولم يجب (ممدوح) مباشرة ..

لقد ظل يحدق فى وجه (رأفت) لدقيقة كاملة ، ضاعفت من قلق هذا الأخير ، وجعلته يكرر :

ـ هل تعانى من كابوس ثقيل ؟!

وهنا فقط ، التقط (ممدوح) أنفاسه ، واعتدل على ذلك المقعد الوثير ، الذى دفع النوم إلى جسده المرهق ، وسعل مرتين ، قبل أن يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ نعم كابوس رهيب .

اعتدل (رأفت) ، وتطلع إليه لحظة فى صمت ، قبل أن يشير بإبهامه إلى النافذة خلف ظهره ، مغمغمًا :

ـ أراهن أنه يتعلق بهذه السفينة .

أومأ (ممدوح) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم نهض من مقعده ، وجسده مازال يعانى من ارتجافة عصبية متواصلة ، واتجه نحو النافذة ، وتطلع إلى السفينة ، التى بدت مخيفة أكثر ، مع ظلام الليل ، والمصابيح المحيطة بها ، وغمغم :

ـ هل سنبقى هنا إلى الأبد ؟!

أجابه (رأفت) فى هدوء :

ـ أنا سأبقى ، حتى يتم حل هذا اللغز ، أما أنت ، فيمكنك أن تعود إلى منزلك .. إنها الثالثة والنصف صباحًا ، ولديك زوجة وابن .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا (ممدوح) فى شدة ، وهو يقول فى ضيق :

ـ من الواضح أنك تعرف الكثير عنى وعن عائلتى .

قال (رأفت) ، بنفس الهدوء :

ـ لا تنس أن المعلومات مهنتى .

مطّ (ممدوح) شفتيه ، متمتمًا ، دون أن يزايله شعوره بالضيق :

ـ بالتأكيد ..

كان يشعر بسخط شديد ؛ لأن (رأفت) يعرف أسراره العائلية ، على الرغم من ثقته فى أنه سيسعى حتمًا لمعرفة المثل عن (رأفت) ، لو انعكست الأدوار ..

أو حتى دون أن تنعكس ..

بل لقد راودته الفكرة الآن بالفعل ..

فكرة أن يسعى للبحث عن أية معلومات ممكنة ، عن رجل المخابرات هذا ..

لم يكن يدرى ما إذا كان هذا متاحًا أم لا ، مع المنصب شديد الحساسية ، الذى يحتله فى مؤسسة الرياسة ، إلا أن الفكرة قد سيطرت على كيانه تمامًا ، وراحت تتعاظم ..

وتتعاظم ..

وتتعاظم ..

و ...

« أريد أن أفحص هذه السفينة مرة أخرى ، عن قرب .. »

قطع (رأفت) أفكاره بتلك العبارة ، فاستدار إليه في حدة ، لم يكن لها أى مبرّر واضح ، وهو يقول :

ـ مرة أخرى ؟! ولماذا ؟!

تطلّع إليه (رأفت) لحظة في صمت ، ثم أجاب :

ـ من المؤكّد أن النظرة إلى الأمور ستختلف ، على ضوء المعطيات الجديدة ..

أطلق (ممدوح) زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماقه ، قبل أن يغمغم :

ـ ربما .

كان يحاول عبثًا ، مقاومة تلك الرغبة العارمة ، التى تغلغلت في كيانه ، إلا أن شيئًا ما فى خلايا مخه الرمادية ، حوّل تلك الرغبة إلى لهفة شديدة ، جعلته يضيف فى حزم :

ـ أريد مراجعة بعض الأمور على كمبيوتر أمن الميناء ، ثم أعود إليك ، لمناقشة الأمر كله .

سأله (رأفت) فى اهتمام :

ـ هل ستصحبنى إلى سطح السفينة عندئذ ؟!

أجابه (ممدوح) ، وهو يندفع خارج الحجرة :

ـ ربما .

ظلّ (رأفت) صامتاً هادئاً ، بعد أن غادر (ممدوح) المكان ، ثم لم يلبث أن استدار فى بطء ، ليتطلّع إلى السفينة الغامضة ، الرابضة على رصيف الميناء ، قبل أن يغمغم :

ـ أيتها السفينة الرهيبة .. كم تثيرين فى نفوس الجميع من رهبة وخوف وقلق !! أنت بالفعل لغز غامض ، فى أذهان وعقول الكل .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم خافت :

ـ فيما عدا أنا .

كانت عيناه تتألقان ، على نحو عجيب ، وهو يميل نحو زجاج النافذة أكثر وأكثر ، دون أن تترك أنفاسه على الزجاج ، ذلك الأثر الضبابى الخفيف ، الذى تتركه أنفاس كل كائن حى ، مع استطراداته الصارمة :

ـ أنا وحدى ، أعلم ما الذى تحملينه إلى هذا العالم بالضبط .. أعلمه تمام المعرفة ..

ومن حسن حظ العميد (ممدوح) أنه لم يكن داخل الحجرة ، عندما نطق (رأفت) هذا عبارته الأخيرة ، وإلا لتضاعف خوفه ودهشته وارتياعه ألف ألف مرة ..

على الأقل ..

* * *

نهض رجال النوبتجية الليلية، فى حجرة متابعة الأمن، فى ميناء (الإسكندرية)، فى احترام تام، عندما دلف العميد (ممدوح) إلى المكان، وهو يقول فى حزم متوتر :

- هل جهاز الاستعلام الأمنى يعمل بكفاءة ؟!

كانت عقارب الساعة تتجاوز الثالثة والنصف صباحًا بثمانى دقائق كاملة، ولم تكن هناك أية سفن قد وصلت إلى الميناء، إلا أن الرجال استجابوا لقائدهم فى سرعة، وضغط أحدهم أزرار الكمبيوتر، متسائلاً :

- ما الاسم الذى ترغب فى الاستعلام عنه، يا سيادة العميد ؟؟!

انعقد حاجبا العميد (ممدوح) بشدة، عندما ألقى رجل الشرطة السؤال، وانتبه لأول مرة، إلى أنه لايعرف عن (رأفت) هذا سوى اسمه الأول ..

لايعرف اسمه الكامل !!

أو رتبته !!

أو حتى جهاز المخابرات، الذى ينتمى إليه !!

أهو جهاز المخابرات العامة، أم المخابرات الحربية !

أم هو جهاز مخابرات خاص بمؤسسة الرياسة مباشرة !!

الواقع أنه لايعرف عنه أى شىء ..

على الإطلاق ..

وفى توتر ، تمتم :

ـ اسم رجل المخابرات الذى يتولّى التحقيق ، فى لغز تلك السفينة السوداء المجهولة .

تساءل الضابط فى حذر :

ـ ألا تعرف اسمه الكامل يا سيادة العميد ؟! لقد قدّم لك هويته السرية بالتأكيد .. أليس كذلك ؟!

وازداد انعقاد حاجبى (ممدوح) ..

وتضاعف غضبه وسخطه ..

ألف مرة ..

كيف سلمّ قياده إلى رجل ، لا يعرف عنه شيئاً ؟!

كيف لم يطلب الاطلاع على هويته ؟!

كيف ؟!

لقد وصل بعد حادث ارتطام تلك السفينة الرهيبة برصيف الميناء مباشرة ، فى سيارة رسمية ، وقدّم نفسه باعتباره أحد رجال المخابرات ..

ومع دقة الموقف وصعوبته ، كان من الطبيعى أن يصدقه ..

ثم إنه كان على اتصال متواصل ، بكل الجهات الرسمية ..

القوات البحرية ..

حرس السواحل ..

وحتى مؤسسة الرياسة نفسها ..

لايمكن أن يكون محتالاً أو زائفًا إذن ..

مستحيل تمامًا !

ولكن لماذا يشعر ، فى أعماقه ، بأن هناك أمر يحيط بذلك الرجل ، الذى يبدو له أكثر غموضًا من البحر نفسه ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

لم يقبل عقله بترديد السؤال طويلاً فى أعماقه ، لذا فقد نقله إلى مجموعة من الأوامر ، انطلقت من بين شفتيه فى حزم صارم ، وهو يقول لرجال أمن الميناء :

ـ أريد معرفة كيفية وصول خبر ارتطام السفينة برصيف الميناء ، إلى أية جهة رسمية ، بهذه السرعة التى تسمح بوصول رجل المخابرات ، بعد أقل من ثلث الساعة ، إلى رصيف الميناء .. ابحثوا عمن منح سيارته تصريحًا بالدخول ، دون إبلاغ مكتب الأمن .. أريد مراجعة أوراقه ، وهويته ، و ......

قاطعه أحد ضباط الشرطة فى توتر :

ـ سيادة العميد .. لا أحد منا يملك مطالبته بإبراز هويته ، وهو يتعامل معك شخصياً .

قال (ممدوح) فى صرامة عصبية :

ـ سأتولى أنا هذا الجزء ، وعليكم أنتم القيام بالباقى .. هل تفهمون ؟!

أدى الجميع التحية العسكرية ، وهو يغادر المكان بنفس الحدة ، التى دلف بها إليه ، واندفع عائداً إلى رصيف الميناء ، وهو يقول لنفسه :

ـ فليكن يا رجل المخابرات .. ما دمت تعلم عنى الكثير ، فمن حقى أيضًا أن أعلم عنك كل شىء ..

بدا صارمًا حازمًا ، وهو يصل إلى تلك الحجرة ، التى ترك فيها (رأفت) ، ولكنه لم يكد يدلف إليها ، حتى عاد حاجباه ينعقدان فى توتر ، قبل أن يهتف فى الجندى الذى يقف عند الباب :

ـ أين ذهب السيد (رأفت) ؟!

بدا الجندى شديد التوتر ، وهو يشير بسبابته المرتجفة إشارة مبهمة ، مجيباً :

ـ إلى هناك ؟!

سأله (ممدوح) فى حدة :

- إلى اين ؟

أجابه الرجل ، والكلمات تنافس ارتجافة سبابته ، وتتفوق عليها أيضًا :

- إلى تلك السفينة .

استدار (ممدوح) فى حركة حادة إلى النافذة ، قبل أن يندفع مغادرًا الحجرة ، وهو يهتف فى حنق :

- ألم يستطع الانتظار ؟

لم تمض دقائق ثلاث ، على قوله هذا ، حتى كان يعتلى ظهر السفينة بالفعل ، وهو يقول لرجل المخابرات فى حدة :

- كان ينبغى أن تنتظر عودتى ؛ لنتناقش الأمر كما اتفقنا قبيل انصرافى .

أجابه (رأفت) فى هدوء مستفز ، وهو يخرج مصباحه اليدوى الصغير من جيبه ، ويشعله ، قائلاً :

- لم أصل إلى ما وصلت إليه ، لأننى ألتزم دومًا بما ينبغى .

سأله (ممدوح) فى صرامة ، وهو يسير إلى جواره ، على سطح السفينة :

- وما الذى وصلت إليه بالضبط ؟!

رمقه (رأفت) بنظرة خاوية ، قبل أن يتجه إلى قلب السفينة ، قائلاً في هدوء :

ـ أما زال اهتمام ابنك الزائد بالعلوم يزعجك ؛ لأنك ترغب بشدة في أن يلتحق بكلية الشرطة ، ليصبح مثل أبيه وجده في المستقبل ؟!

قال (ممدوح) في حدة :

ـ لو أن هذه محاولة منك ، لتريني أن لديك معلومات غزيرة عني وعن حياتي الأسرية ، فهذه سخافة كبيرة ، لا تليق بموقف كهذا ، أما لو أنها محاولة للفرار من إجابة السؤال ، فهي محاولة فاشلة ، لأنني أسألك بصفة رسمية ، وليس بصفة ودية .

استدار إليه (رأفت) في بطء ، وسأله في هدوء عجيب :

ـ بصفة رسمية ؟!

أجابه (ممدوح) في حدة :

ـ نعم .. بصفة رسمية .. أريد رؤية أوراقك كلها ، وما يثبت انتمائك إلى جهاز المخابرات .. وتحديد هويتك ، وهوية جهاز المخابرات نفسه ، و ....

قاطعه (رأفت) بإشارة صارمة مباغتة من يده ، قبل أن يسأله ، في اهتمام شديد :

ـ هل تسمع ما أسمعه ؟!

ارتبك (ممدوح) لحظة، ثم تساءل فى توتر:

ـ وما الذى تسمعه ؟!

هزّ (رأفت) رأسه، قائلاً:

ـ يلوح لى أننى أسمع صوت أنفاس تتردّد.

هتف (ممدوح)، وعقله يستعيد ذكرى ذلك الكابوس الرهيب:

ـ صوت أنفاس تتردّد ؟!

اندفع (رأفت) نحو قمرة قريبة من السطح، وهو يقول:

ـ نعم .. يبدو لى أننى أسمع صوت أنفاس، وأشعر بنبضات قلب، كما لو أن هذه السفينة ..

قاطعه (ممدوح)، وهو يهتف:

ـ حية .. أليس كذلك ؟

توقّف (رأفت) لحظة أمام تلك القمرة، مجيبًا:

ـ بالضبط.

ثم اندفع داخلها، وكأنه يتوقّع رؤية شىء ما ..

أما (ممدوح)، فقد تجمّد فى مكانه بضع لحظات، وهو يستعيد أدق تفاصيل ذلك الكابوس الرهيب ..

صوت الأنفاس ..

نبضات القلب ..

ودخان السيجارة ..

والبحارة ..

والضباط ..

والملابس البحرية العجيبة ..

استعاد كل هذا ، قبل أن ينتفض جسده فى عنف ، وكأنما يستيقظ من ذلك الكابوس مرة أخرى ، ويهتف فى عصبيةٍ :

ـ انتظرنى .

قاوم ذلك التوتر الشديد فى أعماقه ، وهو يتجه نحو تلك القمرة بدوره ..

كان الأمر داخلها واضحًا للغاية ..

الأنفاس مسموعة فى وضوح ..

نبضات القلب ترددها الجدران المعدنيةَ ..

وتلك الرائحة الرهيبة ..

رائحة الموت ..

وفى توتر ، أدار عينيه فيما حوله ، ثم قال فى عصبية :

ـ دعنا نغادر هذا المكان .

أجابه (رأفت) فى صرامة :

ـ ليس بعد .

استدار (ممدوح) فى حدة ، وهو يقول :

ـ فلتبق أنت إذن ، أما أنا ، فسأنصرف من هنا ، و ....

تجمّدت الكلمات فى حلقه ، وتجمّدت معها كل ذرة من كيانه ، وهو يحدّق فى تلك المنفضة على المائدة الصغيرة ، وفى السيجارة الموضوعة فيها ، والتى تتصاعد منها خيوط الدخان المتراقصة ..

ومن خلفه ، انبعثت فجأة تلك الأصوات المتداخلة ..

واتسعت عينا (ممدوح) إلى أقصاهما ، وتجمّدت الدماء كلها فى عروقه ..

تجمّدت تمامًا ..

* * *

٤ـ ظهور واختفاء ..

تراجع الضابط ، المسئول عن الاستعلام الأمنى ، فى توتر ملحوظ ، وهو يراجع المعلومات ، التى حصل عليها رجاله ، وراح يحك ذقنة فى عصبية واضحة ، قبل أن يغمغم :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون هذا ما حدث .. إنها كارثة ..

كارثة أمنية على كل المستويات .

سأله زميله ، فى قلق شديد :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه الضابط المسئول فى عصبية :

وفقًا لبيانات البوابات ، ولتقارير شرطة الميناء ، والجمارك ، وكل الجهات المسئولة ، لم يحصل رجل المخابرات على أية تصاريح ، للدخول بسيارته إلى رصيف الميناء !!

ثم التفت إلى زميله ، مستطردًا فى توتر بالغ :

ـ بل إنه لم يعبر حتى أيّة بوّابة ، من البوّابات المحيطة بالميناء .

انتقلت عصبيته إلى زميله ، الذى هتف :

ـ ولكن هذا مستحيل ! كيف وصل إلى رصيف الميناء إذن ؟!

هتف المسئول :

ـ هذا هو السؤال !

ثم استدار بجسده كله إلى زميله ، متابعًا فى صرامة عصبية :

ـ اسمع .. الأمر على هذا النحو ، يحتم الاتصال بكل الأجهزة الأمنية الرسمية ، لنعلم ما الذى يحدث هنا بالضبط .. اتصل بالمخابرات العامة ، والمخابرات الحربية ، والقيادة المشتركة للجيش ، وحرس السواحل .. وحتى رياسة الجمهورية ، لو اقتضى الأمر .

اتسعت عينا زميله ، وهو يهتف :

ـ هل تعرف كم الساعة الآن ؟!

صاح به المسئول ، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة :

ما يحدث هنا يتجاوز كل المحاذير ، وسنوقظ الدنيا كلها ، لو حتمت علينا إجراءات الأمن أن نفعل ، لأنه لو تجاوزت الأمور الحد الأحمر ، فلن يرحمنا أحد ، وسنتحمل وحدنا مسئولية أى خلل أمنى يحدث .. حتى سيادة العميد (ممدوح) سيتهمنا بـ ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يتلفت حوله ، هاتفًا :

ـ أين سيادة العميد (ممدوح) ؟!

أجابه زميله ، وقد بلغ توتره ذروته بدوره :

ـ سيادة العميد هناك ، مع رجل المخابرات ..

صاح به المسئول فى حده :

ـ أين ؟!

أشار زميله بسبّابته إلى النافذة ، التى تطلّ على رصيف الميناء مباشرة ، وهو يجيب فى توتر :

ـ على متن تلك السفينة .

استدار الضابط المسئول ، بحركة غريزية تلقائية ، نحو النافذة ، وهو يهتف ، بلهجة بدت مستنكرة للغاية :

ـ متن ماذا ؟!

ودون أن ينتظر جوابًا ، اندفع نحو النافذة ، وأزاح (ضلفتها) ، و ...

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وقلبه يخفق بقوة ..

بمنتهى القوة ..

فما يحدث هناك ، عند رصيف الميناء ، كان أمرًا رهيبًا ..

رهيبًا بحق ..

* * *

كل شيء كان أشبه بذلك الكابوس بالضبط ..

كل شيء ..

فهناك ، في تلك القمرة ، كانت الحركة في كل مكان ..

عدد من البحّارة ، وضابط أو ضابطين ، في ثياب ذات ألوان ذهبية عجيبة ، يمارسون حياتهم العادية ، كما يفعل البحّارة ، في أوقات راحتهم ..

كان بعضهم يلعب الورق ، والبعض الآخر يقرأ الصحف والمجلات ، ومجموعة تناقش أمرًا ما ، في أحد الأركان ، في حين اكتفت مجموعة أخرى بالاسترخاء ، ومشاهدة بعض الصور المتحركة ، في ركن آخر ..

وكانت هناك أطباق طعام ، وأكواب شراب ، وأدخنة سجائر ، وكل ما يتناسب مع المكان والموقف ..

وكما حدث في الكابوس تمامًا ، لم يكن هناك شخص واحد يوليه اهتمامًا ، أو ينظر إليه ، أو حتى يبال بوجوده ..

تمامًا كما لو كان مجرّد شبح ..

« الآن .. » ..

انطلق الهاتف من خلفه ، حاملاً صوت (رأفت) ، فانتفض جسده بمنتهى العنف ، وتمنى لو يستيقظ مرة أخرى ؛ ليجد نفسه خارج كابوس جديد ..

ولكن هذا لم يحدث ..

ما حدث فى الواقع ، هو أن (رأفت) قد جذبه من معصمه فى قوة ، إلى خارج القمرة ، وهو يقول :

ـ إنها اللحظة المناسبة .

تبعه (ممدوح) عبر ممرات السفينة ، التى اكتظت بالبحارة والركاب ، وحتى عمال النظافة ، وهو يهتف :

ـ اللحظة المناسبة لماذا ؟!

أجابه (رأفت) فى حزم :

ـ لتفادى الكارثة .

صاح (ممدوح) ، وقد بلغ ذهوله واستسلامه مبلغهما :

ـ أية كارثة ؟!

لم يجب (رأفت) سؤاله هذه المرة ، ولكنه استمر يجذبه من معصمه ، ويندفع به وسط عشرات من رواد السفينة ، الذين يرتدون كلهم تلك الثياب الذهبية العجيبة ، ويتجاهلونهما تمامًا ، كما لو أنهم لا يشعرون حتى بوجودهما ..

ولفترة لم يدر زمنها قط ، أصبح (ممدوح) كالمسحور ، مسلوب الإرادة ، يتبع (رأفت) بنفس السرعة ، إلى سطح السفينة ، وعيناه الذاهلتان ترصدان ما حوله ، دون أدنى انفعال ..

لقد دبت الحياة فجأة ، في كل مكان في السفينة ..

البحارة يمارسون أعمالهم في نشاط ..

الركاب يتجولون في استمتاع وهدوء ..

الضباط يقودون العمل ..

والقبطان في قمرة القيادة ..

تلك القمرة التي انتهى إليها اندفاع (رأفت) و(ممدوح) ، وقال الأول ، وهو يتجه نحو القبطان مباشرة :

ـ الآن فقط يمكننا أن نخرج هذه السفينة من هنا .

ولم يسأله (ممدوح) عما يعنيه ..

لم يحاول أن يسأله ، حتى عندما رآه يدفع القبطان جانبًا ، ثم يتولى دفة القيادة في حزم ..

وبثقة لا مثيل لها ، وهدوء أسطوري مذهل ، بدأ (رأفت) يلقي أوامره ، من قمرة القبطان ، إلى بحارة السفينة ، في منطقة المحركات ، بلغة عجيبة ..

لغة لم يسمعها (ممدوح) في حياته قط ..

ولكن من الواضح أنها قد أسفرت عن أمر واضح جلي ..

لقد ارتجت السفينة السوداء الرهيبة في عنف ..

ثم بدأت تتراجع..

وعلى عكس كل القواعد البحرية المعروفة ، بدأت السفينة تعتدل ، ثم تنسحب من رصيف الميناء فى بطء ، وصفارة استعداد قوية تنطلق منها ، معلنة بدء رحلة جديدة ..

وعلى رصيف الميناء ، سادت حالة رهيبة من الهرج والمرج ، وانتشر الذعر والفزع ، على نحو لم يسبق له مثيل ، وهتف مسئول الاستعلام الأمنى فى حدة :

مستحيل ! أوقفوا هذه السفينة ! أوقفوا هذه السفينة .. لاتسمحوا لها بالتراجع ، على هذا النحو .

سأله زميله فى انفعال :

وكيف نفعل بالله عليك ؟!

لم يدر مسئول الاستعلام بم يُجيبه ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدق فى السفينة ، التى انسحبت مقدمتها بالكامل من رصيف الميناء ، وعادت إلى البحر ، وبدأت تستعد للإقلاع إلى جهة ما ..

فى قلب البحر ..

بحر الغموض ..

ثم فجأة ، امتلأت نفسه بمزيج من الغضب والثورة ، جعله يهتف فى صرامة عصبية :

- اتصلوا بكل أجهـزة الأمـن .. أبلغـوا القوات البحرية ، وحرس السواحل ، برحيل تلك السفينة .. لابد أن يمنعوا هروبها بأى ثمن ..

ثم صرخ ، بكل ما يلتهب فى أعماقه من انفعالات :

- هل تفهمون .. بأى ثمن !

فى نفس اللحظـة ، التى انطلقت فيها صرخته الأخيرة ، انتفض جسد العميد (ممدوح) فى عنف ، وكأنما يصحو من نوم مغناطيسى عميق ، وهتف فى حدة عصبية :

- أية لغة تلك ، التى تحدثت بها ؟!

أجابه (رأفت) بنفس الهدوء ، وهو يواصل قيادة السفينة الغامضة :

- لغتهم .

هتف (ممدوح) :

- وكيف لك أن تعرف لغتهم ؟!

لم يكد يلقى سؤاله ، حتى قفزت إلى ذهنه فجأة فكرة مخيفة ، جعلته يتراجع بحركة عنيفة ، وكأنما أصابته صاعقة ، وهو يقول :

- رباه ! أأنت منهم ؟!

هزّ (رأفت) رأسه ، قائلاً :

ـ كلاّ .. لست منهم بكل تأكيد .

سحب (ممدوح) مسدسه من غمده ، وصوّبه إليه فى عصبية ، وهو يهتف :

ـ بل أنت أحدهم .. هذا هو التفسير الوحيد لكل ما حدث ..

لم يبال (رأفت) كثيرًا ، بالمسدس المصوّب إليه ، وهو يقول ، بنفس الهدوء المستفز :

ـ أنت لا تدرى شيئًا عن التفسير .

صاح (ممدوح) ، وهو يلوّح بمسدسه فى وجهه بغضب صارم :

ـ وهل تملك أنت التفسير أيها العبقرى المتحذلق ؟!

استدار إليه (رأفت) فى بطء عجيب ، وهو يواصل قيادة السفينة ، وأجاب بنفس الهدوء العجيب :

ـ بالطبع يا سيادة العميد .. أنا أملك التفسير .. وكل الأجوبة أيضًا .

اتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما ، وهو يحدّق فيه ذاهلاً ، وانخفضت فوهة مسدسه ، دون أن يدرى ، وهو يغمغم :

ـ أنت ؟!

أجابه (رأفت) ، وهو يقود السفينة ، إلى قلب البحر :

ـ نعم .. أنا .

سأله العميد (ممدوح) ذاهلاً :

- من أنت بالضبط ؟!

أشاح (رأفت) بوجهه عنه ، وهو يقول :

- السؤال الأكثر أهمية ، هو ما هذه السفينة بالضبط ؟! وكيف أتت إلى هنا ، دون أن ترصدها أجهزة الرادار ، أو يراها رجال البحرية المصرية ، أو خفر السواحل ؟!

كان هناك ألف ألف سؤال ، كلها تعربد فى أعمق أعماق (ممدوح) إلا أنه ، ومع ذهوله الشديد ، لم يملك سوى أن يتساءل فى خفوت :

- نعم .. هذا هو السؤال .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- هل سمعت يومًا عن مثلث (برمودا) ؟!

أومأ (ممدوح) برأسه فى بطء ، قبل أن يجيب فى خفوت :

- بالطبع .. إنه مثلث وهمى ، يقع فى غرب المحيط الأطلنطى ، يمتد من (برمودا) شمالاً ، إلى (فلوريدا) جنوبًا ، ويتجه شرقًا ، عبر جزر (البهاما) وغربًا ، حتى خط طول ٥٤٠ ، ثم يعود إلى (برمودا) ، ولقد نسجت حوله عشرات القصص الوهمية والأسطورية ، بسبب الاختفاء الغامض لعدة سفن وطائرات فى نطاقه(*) .

(*) معلومة صحيحة وواقعية .

قال (رأفت) بهدوئه العجيب :

ـ معلومات رائعة ، بالنسبة لرجل أمن ، يعلن دومًا استياءه ، من اهتمام ابنه الزائد بالعلوم .

قال (ممدوح) فى ضيق منعه ذهوله من بلوغ حد السخط :

ـ ابنى لا شأن له بما نحن فيه .

قال (رأفت) فى بطء :

ـ أهذا ما تظنه ؟!

هزّ (ممدوح) رأسه بلا معنى ، قبل أن يقول ، وقد عاوده شىء من عصبيته :

ـ أتريد أن تقول : إن هناك صلة ما ، بين مثلث (برمودا) فى الأطلنطى ، وهذه السفينة ؟!

هزّ (رأفت) رأسه فى هدوء ، مجيبًا :

ـ ليس على نحو مباشر .

وصمت لحظة ، انحبست خلالها أنفاس (ممدوح) ، وبدت له أشبه بدهر كامل ، قبل أن يتابع بنفس الهدوء ، الذى يستفزه منذ البداية :

ـ عشرات النظريات العلمية ، حاولت شرح وتفسير تلك الاختفاءات الغامضة ، التى حدثت عبر التاريخ ، فى مثلث (برمودا) ، وفى

مناطق أخرى من العالم ، دون أي سبب علمي أو منطقي معروف(*) ، ومن بينها كانت نظرية ، بدت للكل مبالغة في الخيال ، إلا أنها كانت تحمل التفسير الفعلي للأمر كله .

غمغم (ممدوح) ، في حالة من الانبهار المسحور ..

- أية نظرية ؟!

تجاهل (رأفت) سؤاله تمامًا ، وواصل قيادة السفينة ، إلى قلب البحر ، وهو يتابع في آلية ، وكأنما يردِّد أمرًا يحفظه عن ظهر قلب :

- ثم ظهر عالم فذ ، عبقري .. فلتة من فلتات العلم والتاريخ ، أمكنه أن يدرس الظاهرة ، من منظور آخر تمامًا مدفوعًا بتأثره الشديد بحادثة اختفاء غامضة ، حدثت هنا في (مصر) ، وقلبت حياته كلها رأسًا عل عقب في صباه .

قال (ممدوح) ، وقد أدهشه ذلك الهدوء العجيب ، الذي ملأ كيانه :

- حادثة اختفاء غامضة ؟! لا توجد حادثة اختفاء غامضة ، في تاريخ (مصر) كلها ، يمكن أن تتشابه مع ما حدث ويحدث ، في مثلث (برمودا) .

(*) التاريخ يذخر بعشرات الأحداث للاختفاءات الغامضة ، لأفراد ومعدات ، في أماكن مختلفة ، وفي أثناء بعض الحروب ، وفي أماكن من البحار والمحيطات ، ولعل مثلث (برمودا) هو الأشهر في هذا المضمار ، لأن الاختفاءات قد تكررت فيه ، عبر حقبة طويلة من الزمان ، وارتبطت بأمور وأشياء مهمة جدًا .

مرة أخرى تجاهله (رأفت) تمامًا ، وهو يواصل بنفس الآلية :

ـ لقد انتبه ذلك العالم الفذ ، إلى أن التاريخ لا يحوى حوادث اختفاء غامضة فحسب ، وإنما يحوى أيضًا حوادث ظهور غامضة ، لم تحظ أبدًا بالقدر نفسه من الاهتمام ، الذى حظيت به حوادث الاختفاء ، فهناك مثلاً تلك الواقعة ، التى حدثت فى أكتوبر ١٥٦٣م ، أمام القصر الرئيسى ، فى مدينة (مكسيكوسيتى) فى (المكسيك) ، عندما ظهر جندى غريب فجأة ، وسط الجنود وعمال القصر .. جندى يرتدى ثيابًا تختلف عن باقى الجنود ، ويحمل أسلحة تخالف أسلحتهم .. ولقد بدا ذلك الجندى مذعورًا ومرتبكًا ، عندما أخبرهم أنه كان ضمن حراس حاكم (مانيلا) ، فى ذلك الصباح فحسب ، وأنه وجد نفسه فجأة فى هذا المكان ، الذى يبعد آلاف الكيلومترات عن المكان ، الذى استيقظ فيه ، منذ ساعة واحدة .. ولقد أخبر ذلك الجندى المسئولين فى (مكسيكوسيتى) أيضًا ، أن حاكم (مانيلا) قد قُتل ، فى الليلة السابقة .. ولما كانت القصة عسيرة التصديق ، فقد تم إلقاء القبض على الجندى ، وسجنه فى قصر حاكم (مكسيكوسيتى) ؛ ولكن بعد شهرين من تلك الواقعة ، وصلت سفينة من (الفلبين) ، حاملة خبر مصرع حاكم (مانيلا) ، فى نفس التوقيت ، وبنفس الوسيلة ، التى أعلنها ذلك الجندى(*) .

(*) واقعة مسجلة .

غمغم (ممدوح) مبهورًا :

ـ مستحيل !

ولكن (رأفت) تابع ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

كل ما فعله المسئولون ، بناء على المعلومات الواردة من (الفلبين) ، هو أن أطلقوا سراح ذلك الجندى ، إلا أن قصته ظلت دومًا غامضة عجيبة ، ولم يصدقها أحد وإن سجّلها أحد المسئولين ، فى قصر حاكم (مكسيكوسيتى) ، من حسن الحظ .

بدا (ممدوح) أكثر انبهارًا ، وهو يغمغم ، وكأنما نسى ما يحدث حوله :

ـ أحدث هذا فعلاً ؟!

لم يدر ماذا أصاب (رأفت) بالضبط ، فقد كان يواصل قيادة السفينة ، فى آلية عجيبة ، وهو يتابع حديثه ، بدا أشبه بشريط مسجّل متصل :

ـ هناك أيضًا قصة الطفلين ذوى البشرة الخضراء ، واللذين ظهرا فجأة ، فى بلدة (بانجوس) فى (اسبانيا) ، فى أحد أيام أغسطس ١٨٨٧م ، من كهف فى الجبال .. لقد ذهل الفلاحون لمرآهما ، وأمسكوا بهما ، وكان الطفلان مذعورين ، ولهما تلك البشرة الخضراء الداكنة ،

والعيون الليمونية ، ذات الطابع الأسيوى ، ولقد حاول قاضى البلدة أن يغسل جلدهما ، متصوراً أنه نتاج صبغة ما ، ثم اكتشف كالجميع أن هذا هو لون بشرتهما العادى .. ولأن لغة الطفلين كانت عجيبة مثل ملابسهما ، فلم يفهمها أحد ، وظلا خمسة أيام دون طعام ، لأنهما رفضا تناول أى شىء ، حتى ضعفت صحتهما ، إلى أن انتبه البعض إلى اهتمامهما الشديد بحبوب الفاصوليا الخضراء .. ولقد لقى الطفل مصرعه بعد فترة قليلة ، فى حين بقيت الطفلة ، وعملت فى منزل القاضى ، وتعلمت بعض الإسبانية ، لتشرح أنها وشقيقها جاءا من عالم آخر ، يختلف عن عالمنا هذا تمام الاختلاف ، وأنهما لا يدريان كيف انتقلا إلى هنا .. ولقد عاشت الفتاة لخمس سنوات بعد ظهورها الغامض ، ثم ماتت بدورها ، ولم يتبق منها سوى ما سجله قاضى (بانجوس) فى مذكراته(*).

هزّ (ممدوح) رأسه ، وهو يتمتم :

ـ عقلى يعجز عن تصديق كل هذا .

وهنا فقط ، استجاب (رأفت) لعبارته ، والتفت إليه ، قائلاً :

هنا تأتى أهمية العقول العبقرية الفذّة .. العقول القادرة على تجاوز حالة الانبهار وعدم التصديق ، والتعامل مع كل الوقائع من منطلق علمى ، بناء على نظرية علمية فلسفية ، تضعها خلايا أمخاخهم

(*) واقعة مسجلة .

المتفوقة .. تماماً مثل (ألبرت أينشتين) ، ذلك العالم المدهش ، الذى قلب قوانين الفيزياء فى زمنه رأساً على عقب .. لقد بدأ كل ما فعله بأفكار علمية فلسفية ، اقتنع بها عقله ، فسعى لإثباتها ، عبر مجموعة من المعادلات الرياضية ، ليخرج لنا بنظرية النسبية ، التى ظلت مبهرة علمياً ، حتى زمن قريب .

هزّ (ممدوح) رأسه ، وكأنما يعلن عجز عقله عن استيعاب كل هذا ، ثم رفع عينيه المحمرتين إلى (رأفت) متسائلاً :

- من أنت بالضبط ؟!

لم يكد السؤال يفارق شفتيه ، حتى انبعث صوت من خارج السفينة فجأة ، يقول صاحبه ، عبر مكبّر قوى للغاية :

- من القوات البحرية إلى السفينة المجهولة .. توقّفى فوراً ، وإلا فسنطلق النار .. هذا إنذارنا الأوّل وسنطلق النار عقب الإنذار الثانى مباشرة .

وانتفض جسد (ممدوح) فى عنف ..

انتفض ، عندما أعاده ذلك الصوت إلى عالم الواقع دفعة واحدة ، اعتدل فى وقفته بحركة حادة ، وهو يرفع فوهة مسدسه فى حزم نحو (رأفت) ، صائحاً :

- ألم تسمع النداء ؟! أوقف السفينة فوراً .

أجابه (رأفت) بمنتهى الهدوء ، وكأنه لا يبالى بفوهة المسدس ، المصوبة إلى رأسه ، ولا حتى بالمدمرة واللنشات البحرية التى تلاحقه ، والتى لن تتردد لحظة واحدة فى نسفه نسفًا ، لو أمرها :

ـ لو بقيت هذه السفينة هنا ، ستكون نهاية هذا العالم كله .

لم يدر (معدوح) لماذا صدق عبارته المخيفة هذه على الفور لم يدر لماذا خيِّل إليه أنه سمعها من قبل ..

أو أنه قد عاش اللحظة نفسها ، فى زمن ما ..

زمن آخر ..

لم يدر شيئاً عن كل هذا ، إلا أنه كان يوقن ، أعمق أعماقه ، أن بقاء هذه السفينة فى العالم ، سيكون بداية الفناء ..

الفناء التام ..

وفى حالة عجيبة ، راح يدير عينيه فيما حوله ، وعشرات المشاعر المتناقضة تعربد فى أعماقه ..

كان البحارة والركاب يتحركون ، وكأنهم لا يشعرون قط بما يدور حولهم ..

حتى قبطان السفينة ، الذى أزاحه (رأفت) عن الدفة ، بدا كأنه غير مبال بما حدث ..

والمدمرة البحرية بدت واضحة ، على مرمى البصر ، على الرغم من ظلام الليل ، وحولها لنشات الصواريخ البحرية ..

وبخبرته الأمنية ، كان يعلم أن المدمرة ستنفذ وعيدها حتمًا ، وستنسف السفينة نسفًا ، لو لم يستجب (رأفت) لأوامرها ..

لذا ، وبكل الحزم والصرامة ، عاد يلوّح بمسدسه في وجه (رأفت) ، صائحًا في صرامة :

ـ أوقف السفينة فورًا .

ولم يجب (رأفت) هذه المرة ..

لم يجب بحرف واحد ..

كل ما فعله هو أن تطلّع إلى الأمام ، في اهتمام وانتباه كاملين ، نحو بقعة ما ، في قلب البحر ..

واتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما ..

فهناك ، في تلك البقعة ، كانت هناك دائرة تألّقت فجأة كما لو أنها مصباح هائل ، نبت في قلب البحر ..

وكان هذا تطورًا مذهلاً وغير متوقع ..

على الإطلاق .

* * *

٥ـ عالم آخر..

بدا ضابط الشرطة، المسئول عن الاستعلامات الأمنية، في ميناء (الإسكندرية)، شديد التوتر والارتباك، وهو يستقبل مندوب رياسة الجمهورية، الذي بادره قائلاً، في غضب واضح:

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا، يا رجال أمن الميناء ؟! حادث بهذه الخطورة، يتم التعامل معه بكل هذا الاستهتار، حتى إن أحدًا لا يحاول إبلاغ المسئولين بالأمر !! هذه جريمة.

أجابه الضابط في توتر بالغ:

ـ لقد قمنا بواجبنا ياسيدي، والاتصالات بيننا وبين قيادة القوات البحرية، وقيادة حرس السواحل، لم تنقطع لحظة واحدة.

هتف مندوب الرياسة في حنق:

ـ وهذا ما يثير جنوننا أكثر وأكثر.. كيف تتولى القوات البحرية، مع قوات حرس السواحل أمرًا كهذا، دون إبلاغنا به ؟! كيف ؟! كيف ؟!

تنهد ضابط الشرطة في عصبية، وهو يقول:

ـ يمكنك أن تسألهم هذا ياسيدي.

هتف مندوب الرياسة فى حدة :

ـ ومن قال إننى لم أفعل ؟!

ثم تلاشت عصبيته دفعة واحدة ، وبدا يائسًا حائرًا ، على نحو أثار دهشة ضابط الشرطة ، خاصة عندما جذب مندوب الرياسة مقعدًا ، وأطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة بالمشاعر والاحباطات ، وهو يجلس عليه ، مواصلاً :

ـ ولكن الكل يؤكد أنه قد تلقّى إرشادات رسمية ، من أجهزة الأمن العليا ، ومن وزارة الدفاع مباشرة ، وأن كل الإشارات والأوامر كانت ملحقة بالشفرات السرية الخاصة ، وبأكواد الطوارئ القصوى ، التى لا يعرفها سوى القادة ، وسيادة الرئيس شخصيًا ، حتى إن أحدهم لم تراوده ذرة واحدة من الشك ، تجاه ما تلقّاه من أوامر وتعليمات .

غمغم ضابط الشرطة :

هذا مستحيل ! من الناحية الأمنية على الأقل !

أشار إليه مندوب الرياسة ، فى انفعال جارف ، وهو يهتف :

ـ بالضبط .

ثم هبّ من المقعد ، الذى لم يكتمل حتى جلوسه عليه ، وهو يتابع فى عصبية يائسة :

ـ هذا ليس مستحيلاً من الناحية الأمنية والمنطقية فحسب ، ولكن من الناحية التكنولوجية أيضًا ، فالاتصال بجهات كهذه ، لايمكن أن تتم من جهة بعيدة ، دون أن يتم رصد الاتصال ، على نحو أو آخر ، ولكن هذا لم يحدث أبدًا ، مما يوحى بأننا أمام جهة بالغة القوة ، تمتلك تكنولوجيا تفوق التكنولوجيا التى تستخدمها مؤسسة الرياسة نفسها ، لحماية أمنها واستقرارها ، وهى بالمناسبة ، أعلى تكنولوجيا معروفة ، فى يومنا هذا .. أو ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، قبل أن يستطرد ، فى صوت بدا مرتجفًا :

ـ أو أننا نواجه قوة هائلة ، لا قبل لنا بها .. قوة أتت من خارج حدود فهمنا وإدراكنا ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ أو خارج حدود عالمنا .

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد الضابط ، مع سماعه العبارة الأخيرة ، وغمغم فى توتر شديد :

ـ أيعنى هذا أن السيد (رأفت) ليس ..

قاطعه مندوب الرياسة فى حزم :

ـ كل أجهزة المخابرات هنا ، تعمل بتكليف وأوامر مباشرة من مؤسسة الرياسة ، وما دمنا لم نعلم بما حدث ، فمن المحتم أن أى جهاز مخابرات ، لم يرسل أحدًا ، و ...

بتر عبارته مرة أخرى ، قبل أن يتساءل فى انفعال :

- أين تلك السيارة ، التى وصل بها رجل المخابرات الزائف هذا إلى هنا ؟!

بدا الضابط وكأنه قد انتبه إلى هذا الأمر فجأة ، وهو يهتف :

- فى الخارج .. ما زالت فى الخارج .

سأله مندوب الرياسة ، وهو يندفع إلى الخارج :

- هل تم فحصها ؟!

هتف الضابط ، وهو يتبعه إلى رصيف الميناء :

- لم يكن هناك داع لهذا .. أعنى من الناحية الأمنية .

اندفع الاثنان نحو السيارة ، التى وصل بها (رأفت) ، إلى رصيف الميناء ، وقال مندوب الرياسة ، وهو يلهث فى انفعال :

- يا لها من مفارقة !! هو يقوم باستدعاء رجال المعمل الجنائى ، لفحص السفينة المجهولة ، فى حين لايفكّر شخص واحد فى فحص سيارته .

همهم ضابط الشرطة بكلمات غير مفهومة ، وكأنما يحاول الدفاع عن موقف إدارة أمن الميناء ، ثم تساءل بصوت حماسى متوتر :

- هل أرسل فى استدعاء رجال المعمل الجنائى ثانية ؟!

أجابه مندوب الرياسة فى حزم :

ـ بالتأكيد .. نحتاج إلى معرفة كل ما يمكن معرفته ، عن ذلك الرجل ، وأى شىء يمكن أن نعثر عليه ، فى سيارته هذه ، سيقودنا حتمًا إلى كشف جزء من الغموض المحيط به .. أى شىء .. بصمة إصبع .. شعرة رأس ، أو حتى ..

قبل أن يتم عبارته ، انطلقت شهقة قوية من حلق ضابط شرطة أمن الميناء ، فرفع مندوب الرياسة وجهه إليه بحركة حادة ، ثم لم يلبث أن أطلق بدوره شهقة قوية ، من أعماق أعماق صدره ، وكلاهما يحدّق فى تلك البقعة المتألّقة ، التى بدت أكبر حجمًا ، وأكثر تألّقًا هناك ..

فى قلب البحر ..

* * *

« اقفز .. »

نطق (رأفت) الكلمة فى هدوء صارم وعلى نحو مباغت ، اقترن بظهور تلك الدائرة المتألّقة ، فالتفت إليه (ممدوح) بحركة حادة ، مكررًا بلهجة مستنكرة :

ـ أقفز ؟!

كرَّر (رأفت) بنفس الهدوء العجيب ، الذى بدا مخيفًا للغاية ، فى تلك اللحظة :

ـ اقفز من السفينة ، قبل فوات الأوان .

حدَّق (ممدوح) فيه بذهول ، قبل أن يهتف فى غضب :

ـ أى أوان هذا ؟!

ما الذى يحدث بالضبط ؟!

اتجه (رأفت) بالسفينة نحو الدائرة المتألِّقة مباشرة ، وهو يقول بنفس الهدوء العجيب المستفز :

ـ النظرية الوحيدة الصحيحة ، لتفسير كل حوادث الظهور والاختفاء الغامضة ، كانت نظرية الأبعاد المتوازية ، والعوالم المتماسة .

هتف (ممدوح) فى دهشة :

ـ نظرية ماذا ؟!

ثم انتفض ، مستطردًا فى غضب :

ـ وما شأن هذا ، بما نحن فيه الآن ؟!

وكما حدث من قبل ، تجاهل (رأفت) سؤاله تمامًا ، وتابع فى آلية :

ـ ولقد توصل ذلك العالم الفذ ، الذى أخبرتك عنه ، إلى هذه الحقيقة ، بعد عشرين عامًا من البحث والدراسة وأثبت أننا لسنا وحدنا فى الكون ، بل توجد حولنا عوالم أخرى ، وأبعاد متوازية ،

وكلها تدور معًا فى فلك كونى واحد ، أو بمعنى أدق ، كلنا نحتل الفراغ الفضائى نفسه تقريبًا ، ولكن بذبذبات وأطوال موجية مختلفة ، وكل عالم وبعد منها يدور حول نفسه طوال الوقت ، كما تفعل كل الأجرام فى الكون المعروف ، ومع الدوران المستمر ، تلتقى العوالم فى نقطة تماس واحدة ، كل حين وآخر ، وعندما يحدث هذا ، تتفتح فجوة بين الأبعاد المتوازية ، عند نقطة تماس العوالم ، و ...

هتف (ممدوح) فى عصبية :

ـ رويدك يا هذا .. لست أفهم الكثير مما تقول ! لقد أرهقت عقلى بعشرات المصطلحات المعقدة ، حتى أننى لم أعد أستوعب شيئًا .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يواصل :

ـ عندما تتفتح الفجوة ، يعتمد الأمر على كثافة المادة الكونية ، لكل من الأبعاد المتماسة ، فالعالم صاحب الكثافة الأعلى ، يمتص الأجسام ، التى تتواجد فى نقطة التماس ، فى العالم صاحب الكثافة الكونية الأقل .. وهذا يفسر حالات الظهور والاختفاء الغامضة عبر التاريخ ، فعندما يكون عالمنا هو الأقل فى الكثافة الكونية ، تختفى منه الأشياء ، التى تنتقل إلى العالم المتماس معنا ، والذى له الكثافة الأعلى ، أما لو حدث العكس ، فالأشياء تختفى من العالم الآخر ، وتظهر فى عالمنا .

اتسعت عينا (ممدوح) ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

- رباه ! هل تعنى أن هذه السفينة ..

قاطعه (رأفت) فى حزم :

- نعم .. هذه السفينة من عالم آخر .. من أحد العوالم المتوازية ، التى التقت مع عالمنا ، فى نقطة تماس واحدة ، وكانت كثافتها أقل من كثافة عالمنا .

تمتم (ممدوح) بكل الدهشة والذهول :

- رباه ! رباه !

ثم تساءل فى توتر :

- ولماذا يمثل هذا خطرًا على عالمنا ؟!

أجابه (رأفت) فى حزم ، وهو يتجه بالسفينة ، نحو الدائرة المتألقة فى قلب البحر مباشرة :

- العالم الذى أتت منه ، ليس عالما مماثلاً لعالمنا ، بل يتكون من مادة مختلفة تمامًا ، على الرغم من أن مخلوقاته تشبه البشر .. وتلك المادة تبدو هنا منيعة ، نظيفة دائمًا ، لأنها تتنافر مع مادتنا الأساسية .. ووفقًا لأبحاث ذلك العالم الفذ ، ستتفاعل مادة ذلك العالم الآخر مع مادة عالمنا ببطء شديد ، ولهذا لم يظهر ركاب وبحارة السفينة ، إلا بعد فترة من الزمن ، فبالنسبة لهم ما زالت سفينتهم تبحر فى بحرهم ، ولا يرون ما يحيط بهم بالفعل .

قال (ممدوح) مبهوراً :

ولكن أجسادهم تتضح رويداً رويداً .

أجابه (رأفت) فى سرعة :

وهنا تكمن الخطورة .

وقبل أن يسأله (ممدوح) عما يعنيه ، تابع فى سرعة :

ـ ظهور أجسادهم التدريجى هذا ، يعنى أن تفاعل مادتهم مع مادة عالمنا يقترب من درجة الالتحام ، فإذا ما تم هذا ، ستتحول السفينة كلها إلى ما يشبه القنبلة النووية الاندماجية ، ولكن بقوة تفوق قوة قنبلة (هيروشيما) ألف ألف مرة ، مما يمكن أن يؤدى إلى فناء هذا العالم تماماً .

امتقع وجه (ممدوح) بشدة ، وزاغت عيناه فى مقلتيهما ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! مستحيل !

ثم خفض فوهة مسدسه ، متمتماً فى ارتياع :

لا بد من منع حدوث هذا بأى ثمن .

أجابه (رأفت) بنفس الهدوء :

ـ بالضبط .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع نداء قوى ، من المدمرة البحرية ، يقول فى صرامة بالغة :

- الإنذار الثانى والأخير .. توقّف فوراً ، أو نطلق النار مباشرة ، دون إنذار آخر .

هتف (ممدوح) :

- رباه .. سيطلقون صواريخهم على السفينة ! هل يمكن أن يؤدى هذا إلى انفجارها .

أجابه (رأفت) ، فى هدوء عجيب :

- اطمئن .. كل قوة أسلحة عالمك ، لا تكفى لخدش سفينة مصنوعة من هذه المادة .

التقى حاجبا (ممدوح) ، وهو يتساءل :

- حقًّا ؟!

أجابه (رأفت) وهو يلتفت إليه فى هدوء :

- امنحنى ثقتك .

تطلّع إليه (ممدوح) فى حيرة متوترة ، وهو يكرّر سؤاله السابق :

- من أنت بالضبط ؟!

لم يكد يلقى سؤاله حتى أطلقت المدمرة صواريخها ..

ودوى الانفجار ..

انفجرت صواريخ المدمرة بدوى هائل ، فى جسم السفينة ، و...

ولكنها حتى لم ترتج ..

لقد واصلت سيرها بنفس الحزم ، متجهة نحو تلك الدائرة ، التى ازدادت تألقًا ، فى قلب البحر ، وكأنما لم يمسّها طير صغير ..

وعلى متن المدمرة البحرية ، اتسعت عيون الكل فى ذهول ، وغمغم ربانها :

ـ مستحيل ! من أية مادة صنعت هذه السفينة .

هزّ ضابطه الأول رأسه فى توتر ، وغمغم فى عصبية :

ـ هل نطلق صواريخنا نحوها مجددًا ؟!

صمت الربان بضع لحظات ، وهو يدرس الموقف فى ذهنه جيدًا ، قبل أن يقول فى حزم ، امتزج بلمحة من التوتر :

ـ كلا .. دعنا نبلغ القيادة العليا أولاً .

وصمت لحظة ، ثم تابع :

ـ ولننتظر ، حتى ندرك لماذا تتجه السفينة ، نحو تلك البقعة المتألقة مباشرة ..

أو ما الذى سيحدث عندئذ .

« ما الذى سيحدث الآن ؟! »

هتف (ممدوح) بالسؤال ، وهو يتطلّع فى توتر إلى الدائرة المتألقة ، فى قلب البحر ، والتى تقترب منها السفينة أكثر وأكثر ، فأجابه (رأفت) بهدوئه العجيب ، وهو ينطلق نحوها مباشرة :

ـ سأعيد هذه السفينة إلى عالمها ، قبل أن تحدث الكارثة .

ثم التفت إليه ، مستطرداً :

ـ أما أنت ، فلتقفز فى البحر بسرعة ، قبل أن نبلغ نقطة اللاعودة .

كرّر (ممدوح) فى انزعاج :

ـ نقطة اللاعودة ؟!

أجابه (رأفت) :

ـ نعم .. فبعد دقائق قليلة ، سندخل نقطة التماس بين العالمين ، وعندئذ لن يكون هناك مجال للفرار .

سأله (ممدوح) فى توتر :

ـ ألا يمكننا أن نترك السفينة ، لتندفع وحدها ، نحو نقطة التماس هذه ؟!

هزّ (رأفت) رأسه نفياً ، وهو يقول :

- مستحيل ! عالمك هنا أقل ، فى كثافة المادة الكونية ، عن ذلك العالم الآخر ، لذا فمن الضرورى أن نستخدم كل طاقة الدفع فى السفينة ، للعبور عكس اتجاه الجذب الطبيعى لفجوة التماس ، ولو تركنا المحركات وحدها ، ستنحرف السفينة عن مسارها ، وترتطم بحافة الفجوة ، وعندئذ ستكون النتيجة أكثر فداحة ، إذ يمكن أن يؤدى هذا إلى فناء العالمين معًا ، وإلى خلل تام ، فى نظام العوالم المتوازية كله .

اتجه (ممدوح) نحوه ، وهو يقول فى حزم :

- سنقوم بهذا معًا إذن .

أجابه (رأفت) فى قوة :

- مستحيل !

ثم التفت إليه ، مكملاً :

- مهمتى هنا هى أن أمنعك من تكرار هذا ..

تجمد (ممدوح) فى مكانه ، وانتفض جسده كله ، مع ارتجاف صوته ، وهو يقول :

- تكرار هذا ؟! ماذا تعنى ؟!

أشاح (رأفت) بوجهه عنه ، وهو يقول :

- أنت أنقذت عالمك فيما مضى ، عندما أدركت ما يواجهه من خطر ، فقدت السفينة بنفسك ، عبر فجوة التماس بين العالمين ، و ...

قاطعه (ممدوح) ، وهو يهتف فى حدة :

ـ ماذا ؟! ما الذى تقوله بالضبط يا رجل ؟!

ما الذى تعنيه بأننى قد فعلت هذا من قبل ؟! إننا لم نر هذه السفينة سوى مرة واحدة .

أجابه (رأفت) :

ـ بالضبط .. أنت رأيت هذه السفينة مرة واحدة ، وأنا كذلك رأيتها مرة واحدة .. فى هذا الزمن .

انتفض جسد (ممدوح) مرة أخرى فى عنف ، وهو يهتف :

ـ هذا الزمن ؟!

استدار إليه (رأفت) ، فى بطء إلى ، وهو يقول :

ـ نعم .. ففى الزمن الذى أتيت منه ، تعتبر واقعة إنقاذك لعالمك مجرد تاريخ .

اتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما ، وهو يقول ذاهلاً ، غير مصدّق :

ـ تاريخ ؟!

أجابه (رأفت) ، بهدوئه المثير :

ـ نعم يا سيادة العميد (ممدوح) .. بطولتك وتضحيتك سجلها تاريخ عالمك ، وإن ظلت ضمن الأسرار العليا للدولة ، لعقدين كاملين من الزمان .

هتف (ممدوح) وكل ذرة فى كيانه ترتجف انفعالاً :

ـ تاريخ ؟! .. لست أفهم .. لا يمكننى أن أفهم .

أجابه (رأفت) والسفينة تواصل اقترابها من فجوة التماس المتألقة :

ـ الأمر عسير الفهم بالفعل ، بالنسبة لزمنك ، فالتكنولجيا التى أمتلها ، تفوق أعظم تكنولوجيا فى زمنك بألف مرة على الأقل .. لهذا لم يكن من العسير أن أصل إلى رصيف الميناء ، دون أن يشعر أحد ، وأن أستخدم شفرة الاتصالات ، وأكواد القيادات العليا السرية ، لتوجيه الأوامر والتعليمات للقوات البحرية ، وقوات حرس السواحل ، ورجال المعمل الجنائى ، وكل أجهزة الأمن الأخرى .

ردد (ممدوح) بكل الذهول :

ـ مستحيل ! مستحيل !

أجابه (رأفت) :

ـ لا يوجد مستحيل ، بالنسبة للتقدّم العلمى يا سيادة العميد ، فما يبدو مستحيلاً فى زمن ما ، يتحوّل إلى حقائق يومية بسيطة ، فى أزمنة تالية .. راجع أفلام الخيال العلمى منذ ربع القرن ، وستجد أنك تحيا الآن فيما كانوا يتصوّرونه خيالاً محضًا فيما مضى ..

وآلة الزمن ليست اختراعًا حديثًا ، وربما بدأت تجاربها الأولى بالفعل ،

فى عام ١٩٩٧م ، على يد العالم الروسى (تشيرنوبروف)(*) ، ولكنها ظلت تعطى نتائج محدودة ، حتى قام عالمنا الفذ بتطويرها ، وتحسينها ، وصنع منها آلة زمن فعلية ، نجحت فى إعادتى إلى زمنك هذا ، لأمنعك من تكرار ما فعلته ، ولأتولى بدلا منك مهمة إنقاذ عالمك ..

وصمت لحظة ثم تابع :

- بمعنى أدق .. مهمتى هى أن أحل محلك حتى لاتلقى مصرعك ، فى هذه العملية .

ظلّ (ممدوح) جامدًا ذاهلاً بضع لحظات ، قبل أن يتمتم :

- مستحيل ! لايمكن أن يكون هذا حقيقيًا .

أجابه (رأفت) :

- إنه كذلك .. الآن أسرع بالقفز إلى البحر فلم يعد أمامنا الكثير من الوقت .

حدّق فيه (ممدوح) بضع لحظات ، فى صمت ذاهل ، وعقله يأبى تصديق ما سمعه !!

آلة زمن ..

تاريخ ..

بطولة ..

و ...

(*) حقيقة ، ويمكن مراجعة تجارب آلة الزمن ، على شبكة الإنترنت ، بالبحث عن اسم (Chernoprove) ، وهو العالم الذى وضع أول تصميمات عملية لآلة الزمن .

« ولماذا أنت ؟! »

هتف بالسؤال بغتة ، فى صرامة مستنكرة ، قبل أن يلوّح بيده ، مستطردًا فى حدة :

ـ لماذا تقوم أنت بالتضحية بنفسك ، لإنقاذ عالمى .

أجابه (رأفت) من برود :

ـ إنها مهمتى ، التى عبرت من أجلها الزمن إلى هنا .

هتف به (ممدوح) :

ـ أية مهمة تلك ؟! ومن كلّفك إياها ؟!

آدار (رأفت) عينيه إليه ، فى بطء رهيب ، قبل أن يجيب !

ـ ابنك .

وانتفض جسد (ممدوح) بمنتهى العنف والشدة هذه المرة ..

فالجواب كان صاعقًا ..

بحق ..

* * *

٦ - المهمة الأخيرة ..

انعقد حاجبا مندوب رياسة الجمهورية فى قوة ، وهو يدور مع ضابط الشرطة ، المسئول عن الاستعلام الأمنى ، فى ميناء (الإسكندرية) ، حول تلك السيارة ، الرابضة على رصيف الميناء ، والتى وصل بها (رأفت) إلى المكان ، ثم لم يلبث مندوب الرياسة أن توقف ، هاتفًا :

- مستحيل ! لا يوجد مدخل واحد إلى هذه السيارة العجيبة !! كيف خرج منها رجل المخابرات الزائف أمامكم إذن ؟!

قلب ضابط الشرطة كفيه ، فى حيرة ما بعدها حيرة ، وهو يقول :

- لست أدرى لقد رأيناه جميعًا يدخل المكان بها ، ثم يغادرها فى بساطة ، كما يغادر أى شخص عادى سيارته ، ولم أتخيل لحظة واحدة ، أن أبوابها وحقيبتها يمكن أن تكون كلها ملتحمة بجسمها ، على هذا النحو .. إنها .. إنها ..

ارتج عليه بضع لحظات ، من فرط حيرته ، قبل أن ينتفض جسده لسبب ما ، ويهتف فى عصبية :

- لا يوجد تفسير لكل ما يحدث هنا .

ازداد انعقاد حاجبا مندوب الرياسة ، وهو يتطلع إلى سيارة

(رأفت) فى غضب ، ثم تراجع بحركة حادة ، وسحب مسدسه من حزامه ، وهو يقول فى صرامة عصبية :

ـ فليكن .. لن يقف هذا الشىء عقبة ، فى سبيل معرفتنا للحقيقة .. لو أن جسم هذه السيارة الزائفة مغلقًا ، فنوافذها مازالت مصنوعة من الزجاج ، الذى لن يصمد أمام رصاصات مسدسى هذه .

وقبل حتى أن تكتمل عبارته الأخيرة ، كان يضغط زناد مسدسه ، ويطلق النار ..

ومع صمت الميناء فى تلك الساعة ، بدا دوى الرصاصات أشبه بالقنابل ، على نحو استفز أعصاب كل من بالميناء ، فسحب رجال الشرطة منهم أسلحتهم ، واندفعوا نحو مصدر الطلقات ، و ...

وتوقف الجميع ذاهلين ..

بل تجمّدوا..

تجمّدوا تمامًا ..

فما حدث أمام عيونهم جميعًا ، إثر ارتطام الرصاصات بجسم سيارة رجل المخابرات (رأفت) ، كان مذهلاً ..

وإلى أقصى حد ..

لقد ارتطمت الرصاصات بزجاج السيارة وجسمها ، ثم ارتدّ في عنف ، كما لو أنها مصنوعة من أقوى عنصر في الكون ، ودون أن تترك بها الرصاصات خدشًا واحدًا ..

ولم يكن هذا هو سبب ذهول الجميع ..

وإنما كان البداية ..

فقط البداية ..

ففي اللحظة التالية ، التمع جسم السيارة ، كما لو أن بقعة ضوء كبيرة ، قد سقطت عليها مباشرة ..

ثم راحت تتألّق ..

وتتألّق ..

وتتألّق ..

ومع تزايد تألقها ، راح جسدها يرتفع عن الأرض في بطء ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وفي ذعر ذاهل ، تراجع الجميع مبتعدين ، وهتف مندوب الرياسة ، في عصبية زائدة :

ـ مستحيل ! ما الذي يحدث هنا ؟! ما الذي يحدث ؟!

مع آخر كلماته ، ازداد تألُّق السيارة فى قوة مبالغة ، حتى أغشى تألُّقها الأبصار ، فانطلقت شهقات ذاهلة مذعورة من الحلوق ، وانطلق الكل يعدو مبتعدًا ، فى هلع غير محدود ، وقد وقر فى أعماقهم جميعًا أن السيارة ستنفجر فجأة ، وستودى بهم ..

ومن خلفهم ، دوى صوت ما ..

صوت مكتوم عجيب ، أشبه بصوت هواء ينطلق ، بضغط مرتفع ، من وعاء ضيق ..

ثم تلاشى التألُّق دفعة واحدة ..

وفى ذعر شديد ، استدار الكل يحدقون فى ذلك الموضع ، الذى كانت تحتله سيارة (رأفت) ، منذ لحظة واحدة ..

ثم قفز الذهول إلى ذروته ..

وكذلك الهلع ..

فلقد كان ذلك الموضع خاليًا ..

خاليًا تمامًا ..

وعلى نحو مذهل ..

للغاية ..

* * *

لدقيقة أو يزيد ، ظلّ (ممدوح) يحدّق في وجه (رأفت) ذاهلاً ، حتى قال هذا الأخير ، دون أن يفارقه بروده :

- هيا .. لاتضع الوقت .. اقفز في البحر ، وسيتم الأمر ، كما قمت به أنت سابقًا .. وعلى أكمل وجه ، و ...

قاطعه (ممدوح) ، بكل توتر الدنيا :

- تقول : إن ابنى هو من أرسلك من المستقبل !!

صمت (رأفت) لحظة ، ثم أجاب :

- نعم .. أرسلنى ، مجازفًا بوجوده نفسه ، فى سبيل إنقاذك ، من المصير الذى اخترته بنفسك ، لإنقاذ عالمك .

ثم التفت إليه ، متابعًا :

- صدقنى .. لقد افتقدك بشدة .. كان يحبك إلى حد الهوس ، على الرغم من خلافاتكما المستمرة .. وحزنه لفقدك وفراقك لم يزايله قط ، وكان الدافع الأوّل ، الذى حفّز كل عبقريته وهمته ، ليتحوّل إلى أعظم عالم فى عصره .. لقد فاق كل من سبقه من علماء ، على نحو فذ .. وضع نظريات علمية جديدة ، كسرت كل الثوابت الفيزيائية المعروفة ، وتوصّل إلى كشوف مذهلة ، لم يحلم بنصفها أعظم وأعلم العلماء ، الذين احتلوا مكانة رائعة ، فى تاريخ العلم .. وكل هذا من أجلك .. لقد ظل يؤمن لفترة طويلة أنه باستطاعته استعادتك ، وإنقاذك من الفناء ، مع هذه السفينة ، مما

جعله يبذل جهدًا مضنيًا لحل اللغز ، ولتطوير آلة الزمـن .. الواقع أنه ينبغى أن تفخر بـه يا سيادة العميد ؛ فهو أعظم مـن عرفـه زمنى ، وهو عميد علماء العالم كلهم .

وعلى الرغم من صعوبة الموقف ودقتـه ، شعر (ممدوح) بفيض من الحنان والزهو يسرى فى عروقه ، وذهنه يستعيد صورة ابنـه الوحيد ، ويتمنى لو أمكنه أن يحيا بالفعل ، حتى يرى تلك اللحظة ، التـى سيصبح فيها ابنه أعظم علماء عصره ، وعميدهم ، و ....

وفجأة ، انطلقت شهقات قويـة مـن حولهمـا ، وانبعثت أصوات عصبية قوية ، انتزعت (ممدوح) من مشاعره ، فتلفت حوله فـى توتر ، ووقع بصره على البحارة والركاب ، وضباط السفينة ، وهم يحدقون فيه ، وفى (رأفت) ، عبر زجاج قمرة القيادة ، على نحو جعله يهتف :

ـ رباه ! إنهم يروننا الآن ، ويشعرون بوجودنا .

أجابه (رأفت) فى سرعة :

ـ إننا نثير ذهولهم وفزعهم للغايـة يا سيادة العميد ؛ فبالنسبة لهم ، تغير عالمهم فجأة ، وانتبهوا إلى وجودهم فى عالمنا ، وفـى نفس اللحظة ، التى أدركوا فيها هذا ، فوجئوا برجلين غريبين ، يرتديـان ثيابًا عجيبة ، يحتلان قمرة القيادة ، ويقودان سفينتهم ، نحو بقعـة متألقة عجيبة ، تثير ذهولهم وذعرهم أيضًا .

حمل صوت (ممدوح) كل توتره ، وهو يواصل التلفُّت حوله ، هاتفًا :

ـ رباه .. سيقتحمون القمرة حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً ..

أجابه (رأفت) فى هدوء :

ـ اطمئن .. لن يمكنهم هذا .. القمرة محكمة من اتجاههم ، وعلى الرغم من إدراكهم لوجودنا ، إلا أن اختلاف مادتينا يمنعهم من الظفر بنا ، أو حتى الإمساك بنا ..

قال (ممدوح) فى عصبية :

ـ ولكنك استطعت إزاحة قبطانهم عن دفة القيادة .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ أنا أختلف .

هتف به (ممدوح) :

ـ وفيم تختلف ؟!

صمت (رأفت) لحظة أخرى ، ثم قال :

ـ اقفز يا سيادة العميد .. اقفز قبل فوات الأوان ..

اخرج من هنا ، واتجه نحو حاجز السفينة مباشرة ، واقفز فى البحر دون تردُّد .. سيتابعونك بأبصارهم فى ذعر وعدائية وتحفُّز ،

ولكن أحدهم لن يمنكه أن يمنعك مما ستفعله .. اقفز بالله عليك ، وغادر هذه السفينة ، قبل أن يضيع الوقت ، وتذهب تضحية ابنك هباءً .

خفق قلب (ممدوح) فى عنف ، وهو يردد :

ـ تضحيةً ؟! ماذا تعنى ؟!

صاح به (رأفت) :

ـ اقفز يا سيادة العميد .. غادر السفينة فوراً .

ولكن (ممدوح) لم يبال بصيحته ، وهو يسأله فى حدة :

ـ تحدثت من قبل عن مجازفة ابنى بوجوده المستقبلى ، فى سبيل إنقاذى ، ثم تتحدث الآن عن تضحيته .. ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟! أفصح .

كرّر (رأفت) :

ـ غادر السفينة .. أمامنا ثلاث دقائق فحسب ، وبعدها ستصبح مهمتى كلها عديمة الجدوى .

هتف (ممدوح) :

ـ أغادر السفينة ، وتقودها أنت إلى عالمها .. وإلى حتفك أيضًا .. أليس كذلك ؟!

قال (رأفت) :

- المهم أن تنجو أنت .

صاح (ممدوح) متحديًا :

- كلاَّ .. لن تبذل حياتك فى سبيل حياتى .. لن أسمح لك بهذا قط .

أجابه (رأفت) ، وهو يتجه بالسفينة ، نحو الدائرة المتألقة تمامًا :

- لن أبذل شيئًا يا سيادة العميد .. المهم حياتك أنت .

صاح به (ممدوح) :

- وماذا عن حياتك أنت ؟!

استدار إليه (رأفت) ، فى بطء مخيف ، وهو يجيب :

- اطمئن .. ليست لى حياة .

انتفض جسد (ممدوح) - واتسعت عيناه عن آخرهما ، وشمل الذهول كل لمحة من ملامحه ، قبل أن يغمغم :

- ليست لك حياة !

تألقت تلك الدائرة أكثر وأكثر ، فى تلك اللحظة ، وغمر ضوؤها العجيب وجه (رأفت) ، على نحو مخيف ، وهو يقول :

- نعم ياسيادة العميد .. أنا لست شخصًا حيًا ، كما يبدو لكم جميعًا .. أنا فى الواقع أحد أعظم اختراعات ابنك فى المستقبل ، فآلة الزمن لاتزال عاجزة عن نقل البشر عبر الزمن .

غمغم (ممدوح) ، بكل ذهول الدنيا :

- أنت .. أنت شخص آلى !!

هزَّ (رأفت) رأسه فى بطء ، مجيبًا :

- ليس بالمعنى المعروف فى زمنك .. أو حتى بالمعنى الذى تحمله بعض الأفلام الخيالية ؛ فجسمى يتكوَّن من مجموعة الموصلات ، ذات قدرة لايمكن وصفها ، أو شرحها ، بالنسبة للتكنولوجيا المعروفة فى زمنك ، ولكنها تمنحنى ذلك الذكاء الصناعى ، الذى حلمتم به طويلاً ، وإن كانت قاصرة فى الجزء الخاص بالتفاعل الانفعالى مع الأحداث .

غمغم (ممدوح) ، من قلب ذهوله :

- لهذا .. لهذا كنت هادئًا طوال الوقت .

قال (رأفت) :

- لدى مجموعة محدودة من البرامج الانفعالية ، أمكننى إظهارها فى مناسبات قليلة فحسب .

هتف (ممدوح) :

ولكن لماذا كل هذا .. لماذا اتصالك بالبحرية ، وقوات حرس السواحل ، واستدعاء المعمل الجنائى .. لماذا كل هذه التمثيلية ، مادمت تعرف طبيعة مهمتك منذ البداية ؟!

أجابه (رأفت) ، بذلك الهدوء الآلى :

- لابد أن يسير كل شىء وفقًا لما سجّله التاريخ بالضبط ، حتى لحظة التغيير ، فأى اختلاف ، قبل اللحظة المنشودة ، يمكن أن يؤدى إلى مجموعة تداعيات زمنية ، ربما تقود الأحداث إلى اتجاه آخر تمامًا ، ولا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يحدث عندئذ .. ربما كارثة أكثر فداحة .

انعقد حاجبا (ممدوح) ، وهو يتمتم :

- نعم .. أى اختلاف فى الأحداث ، قد يقود إلى كارثة أكثر فداحة .

أجابه (رأفت) :

- بالضبط .

خفض (ممدوح) عينيه ، اللتين غامتا على نحو عجيب ، وبدا وكأنه غارق فى تفكير عميق ، فتابع (رأفت) :

والآن هيا .. غادر السفينة فورًا ياسيادة العميد هيا .

التقط (ممدوح) نفسًا عميقًا ، ثم أطلقه من أعماق صدره ، في شكل زفرة ملتهبة ، وهو يغمغم :

ـ معذرة يا (رأفت) ، أو أيًا كان اسمك .

ثم رفع فوهة مسدسه فجأة ، وأطلق رصاصاته نحو ساقي (رأفت) ، مستطردًا بصيحة صارمة :

ـ ولكنني لن أغادر السفينة .

أصابت الرصاصات ساقي (رأفت) ، فاختل توازنه ، وسقط فجأة ، فاختل توازن دفة القيادة لحظة ، ولكن (ممدوح) وثب يلتقطها ، ويحافظ على مسار السفينة ، نحو الدائرة المتألقة ، فقال (رأفت) ، بنفس الهدوء المستفز :

ـ ولكن لماذا ؟!

أجابه (ممدوح) في تأثر واضح :

ـ لأن ابني العبقري ، فاته أن ينتبه إلى نقطة مهمة جدًا ، ربما تحتاج إلى عقل رجل أمن ، بأكثر مما تحتاج إلى عالم فيزيائي فذ .

سأله (رأفت) :

ـ أية نقطة ؟!

أجابه (ممدوح) ، وهو يلتقط نفسًا عميقًا :

- لماذا فعلت أنا ما فعلت ، وقدت السفينة عبر تلك الدائرة المتألقة ، لأعيدها إلى عالمها ، على الرغم من أن عقليتى ، ومعلوماتى العلمية ، وطبيعتى الأمنية ، لايمكن أن تقودنى إلى هذا ، دون أن أدرك بوضوح طبيعة الخطر الذى تمثله لعالمى ؟!

سأله (رأفت) فى آلية :

- الواقع أن هذا لم يرد ببرنامجى قط ، ولكن دعنى أسألك . لماذا فعلت ؟!

التقط (ممدوح) نفسًا عميقًا آخر ، وتأكد من أن السفينة تتجه نحو قلب الدائرة المتألقة مباشرة ، قبل أن يجيب :

- لأنك أتيت إلى هنا .

قال (رأفت) فى بطء :

- لم أفهم .

أجابه (ممدوح) :

- الواقع أن ابنى ، عندما أرسلك عبر الزمن ، إلى هذه الفترة ، لم يكن فى سبيله إلى تغيير الأحداث فى الواقع ، وإنما كان يبدأها ، دون أن يدرى ، فوصولك هو الذى نبهنى إلى خطورة هذه السفينة على عالمى ، وهو الذى جعلنى أقودها نحو فجوة التماس ، لأعيدها إلى عالمها .. باختصار .. الزمن يسير فى دورته الطبيعية ، سواء استخدمت آلة زمن أم لا ..

قال (رأفت) :

ـ هل تعنى أننا ندور فى دائرة مغلقة .. أنا آتى إلى هنا، وأرشدك إلى الخطر، فتقود السفينة إلى العالم الآخر، ويفتقدك ابنك، ويجاهد ويثابر، حتى يكشف اللغز، ويخترع آلة الزمن، ويصنعنى، فأعود إلى هنا، فى محاولة إنقاذك، ولكن عودتى ترشدك إلى الخطر، وهكذا ..

أجابه (ممدوح) فى حزم :

ـ بالضبط .

قال (رأفت) ، بنفس الهدوء الآلى العجيب :

ـ ولكن كانت أمامك الفرصة للتغيير .. كان ينبغى أن تقفز إلى البحر، وتغادر السفينة، وتتركنى أنا أقودها إلى عالمها .. كانت أمامك فرصة تغيير الزمن بالفعل .

هزّ (ممدوح) رأسه نفيًا، وترقرقت الدموع فى عينيه، وهو يقول :

ـ وما الذى كان يمكن أن يحدث عندئذ ؟! أنت قلتها بنفسك .. تداعيات زمنية، قد تؤدّى إلى كارثة فادحة .. بل وقد تهدّد وجود ابنى فى المستقبل .

قال (رأفت) :

ـ هذا صحيح .

تابع (ممدوح) ، ودموع حنان تسيل من عينيه ، دون أن ينتبه إليها :

- لقد صنع ابنى عظمته كلها ، مع تأثره بفقدى .. إننى أشعر بالحزن والأسى لما سيصيبه ، ولكن المأساة صنعت منه أعظم علماء عصره .. لاتنس هذا أبدًا .

وتدفقت الدموع من عينيه أكثر ، وهو يستطرد :

- إننى أسمع منذ طفولتى أن الشخص الوحيد ، الذى يتمنى المرء تفوقه عليه ، هو ابنه ..

فقط ابنه .. والآن تيقنت من أن هذا القول حقيقى تمامًا ، فما أن وضعت حياتى فى كفة ، ومستقبل ابنى فى الكفة الأخرى ، حتى رجحت كفته لدى بلاتردد .

استنفر (رأفت) كل قواه الآلية ، ونهض واقفًا ، على الرغم من إصابة ساقيه شبه الحيويتين ، و(ممدوح) يكمل :

- لو نجوت أنا من الموت الآن ، سيفقد ابنى حافزه ، الذى صنع منه أعظم علماء عصره .. ولا أحد يدرى ما الذى سيحدث عندئذ ... ربما يؤدى وجودى إلى تهديد وجوده هو ، فمن تختار ، لو كنت مكانى .

أجابه (رأفت) :

- برنامجى لايتيح لى مواجهة مثل هذه الاختيارات .

ابتسم (ممدوح) ، على الرغم من الدموع ، التى غمرت وجهه ، وهو يقول :

ـ أما أنا ، فما منحنى إياه اللّه (سبحانه وتعالى) ، يمنحنى القدرة على التمييز ، وتقدير الأمور ، واتخاذ القرار ، ومهما بلغت عبقرية البشر ، لن يصنعوا ذرة مما يمنحه الخالق (عزّوجل) لكل مخلوقاته .. إرادة القرار .

صمت (رأفت) بضع لحظات ، قبل أن يلتقط الدفة ، قائلاً :

ـ أظنني أستطيع قيادتها على نحو أفضل .

تشبث (ممدوح) بالدفة فى قوة ، وهو يقول فى صرامة حازمة :

ـ لن تمنعنى من تنفيذ ما قرّرته .

أجابه (رأفت) بهدوئه العجيب :

ـ اطمئن يا سيادة العميد .. لقد فات أوان التراجع .. السفينة ستعود إلى عالمها ، بعد دقيقة واحدة .

تردّد (ممدوح) لحظة ، ثم لم يلبث أن ترك دفة القيادة ، وهو يقول :

ـ نعم .. انطلق بها إلى بر الأمان .

وتراجع بضع خطوات ، مغمغماً :

ـ أمان عالمنا كله .

تسلَّم (رأفت) الدفة ، واتجه بالسفينة نحو الدائرة ، التى بدت هائلة الحجم ، وبدا تألّقها رهيبًا ، إلى الحد الذى جعل ركابها وبحارتها وضباطها ، وحتى قبطانها يصرخون فى رعب ، وهم يجهلون تمامًا أن عبورها سينقذ حياتهم ، ويعيدهم إلى عالمهم ..

ومن بعيد ، هتف قبطان مدمرة القوات البحرية المصرية :

- رباه !! فليتوقف الكل فورًا .. هذا الشىء يبدو رهيبًا وخطيرًا للغاية ، ومن الواضح أن رجل أمن الميناء يقود السفينة نحوه لهدف ما .

وصمت لحظة ، انعقد خلالها حاجباه ، قبل أن يستطرد :

- شىء ما يحدثنى أنه يفعل هذا من أجلنا .. من أجلنا جميعًا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت السفينة تعبر الدائرة المتألّقة بالفعل ، و (ممدوح) يلتقط نفسًا عميقًا آخر ، ثم يغلق جفنيه على دموعه ، التى أغرقت كيانه كله ، وهو يهتف :

- كم أقدّر ما فعلته من أجلى يا بنى .. وكم تمنيت أن أخبرك كم أنا فخور بك ، ومزهو بما ستصل إليه ولكن يكفينى أن يدرك قلبك ، فى وقت ما ، أو زمن ما ، أننى إنما فعلت ما فعلته من أجل العالم كله .. من أجل عالم أردتك أن تنعم فيه بالحياة .. والتفوق .. لقد فعلت هذا من أجلك يا ولدى ..

ومع آخر حروف هتافه ، الذى انطلق من أعمق أعماق خبايا قلبه ، عبرت السفينة السوداء العجيبة ، تلك الدائرة المتألّقة ، وتجاوزتها إلى بعد آخر ..

إلى عالم آخر ، ربما يكون العميد (ممدوح) هو أول من وقع بصره عليه ، من بنى البشر ..

عالم يختلف ..

يختلف تمام الاختلاف ..

وأمام عيون الجميع الذاهلة ، وفور اكتمال عبور السفينة ، راح تألق فجوة التماس يخبو ويخبو ، حتى تلاشى تمامًا ..

تلاشى ليغلق إلى الأبد ملف السفينة الغامضة ، الذى لم يعلن رسميًا أبدًا ..

وتلاشى ليضع كلمة النهاية ، على ملحمة إنسانية رائعة ، ربما لن يعلم أحد بأمرها ، حتى آخر الزمان ..

ومع التلاشى ، عاد الظلام ، والصمت ، والسكوت ، والهدوء إلى تلك البقعة ..

إلى قلب البحر ..

النابض ..

إلى الأبد ..

* * *

[تمت بحمد الله]